

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قائِد المعززين بالله الفاضل

تأليف

الدكتور على إبراهيم حسن

المفتش الأول للمواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم ا.د. فريد شافعي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

كتاب جنة الصقلي

قائد المعزدين بالله الفاطمي

تأليف

الدكتور على إبراهيم حسن

المفتش الأول للمواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



ملزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بالقاهرة

هذا الكتاب قال به المؤلف درجة ماجستير في التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

مطبعة السعادة
١٢ ش. الجيزى - القاهرة
ت: ٩٠٧٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصديق

أناح لي قياسي بترريس مواد التاريخ الاسلامى العام وتاريخ مصر
قبما قبل الفتح الفاطمى وفى العصر الفاطمى وفى عصر الأيوبيين والمماليك
كأستاذ للتاريخ الاسلامى فى كلية دار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة
وبجامعة بغداد — إلى منابهة تحليل شخصية « جوهرة الصقل »

تناولت حياة جوهرة الصقل ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، بالبحث ، لما
لذلك القائد العظيم والفاخر الكبير من الأثر فى تاريخ العالم الإسلامى عامة
وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذى فتح بلاد المغرب وفتح
مصر وأقام سلطان الفاطميين فى الشرق .

ولإن عصر جوهرة الصقل لمن أهم عصور التاريخ المصرى ، لذلك كان
جوهرة لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص ، وأحمد بن طولون ، ومحمد بن طنج
الإخشيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم من مشهورى
أمراء مصر وحكامها .

لذلك استقصيت كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وآثاره ، واستطعت أن
أوضح الكثير من المسائل الغامضة فى هذه الناحية من نواحي تاريخ
مصر الإسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن نشأة ذلك القائد وموطنه الأصيل ،
والدور السياسى الذى قام به فى تاريخ مصر : من ذلك تأسيس مدينة القاهرة
التي لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر
المذهب الفاطمى ، وفتح مصر والشام وفلسطين والحجاز ، وتوطيد دعائم
سلطان الفاطميين فيها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة افطسكين
ومن حالفه من القرامطة .

محتويات الكتاب

مقدمة

تصدير الكتاب ٢

الباب الأول

جوهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

- ٩ جوهر قبل اتصاله بالمعز
أصل جوهر ، ولادته ، بيته ، الحسين بن جوهر
١٤ جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن فتح مصر
جوهر الصقلي ، جوهر الكاتب ، تقلد جوهر الوزارة في بلاد المغرب ،
فتوحه في بلاد المغرب ، منحه لقب القائد ، توليته إمرة الجيوش
لفتح مصر .

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

- ١٨ حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي
مصر في عهد الإخشيد : ثروة مصر في عهده ، ضعف الخلافة العباسية
مصر في عهد كافور : أصل كافور ، قيامه بالوصاية على أنوجور وأبي
الحسن عليّ ابني الإخشيد ، ظهور الوحشة بينه وبين ولدي الإخشيد ،
استئثار كافور بالسلطة ، حالة مصر في أواخر أيامه ، حالة مصر
بعد وفاته
٢٥ فتح مصر
حملات الفاطميين الأولى على مصر ، حملة المعز على مصر ، صد كافور لها ،
المعز بعد العدة لفتح مصر ، تولية جوهر القيادة ، تقدير المعز لجوهر ،

موجزة

نوديع المعز له ، مسير الجيوش الفاطمية بقيادته ، وصول جوهر إلى برقة ، استيلاؤه على الأسكندرية ، مفاوضات الصلح بين جوهر والمصريين ، اضطراب أهل الفسطاط ، بيان جوهر للمصريين ، استيلاؤه على الفسطاط ، استئناف مفاوضات الصلح بينه وبين المصريين ، بيان جوهر الثاني ، تهنئة المصريين جوهراً بالفتح ، دخول جوهر الفسطاط ، جوهر وثمة الفتح .

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية ٣٩

استيلاء جعفر على الرملة ، استيلاؤه على طبرية ، مقابلته وفد دمشق ، استيلاء جعفر على دمشق ، قيام الأهليين بالثورة ، معاملة جند الفاطميين للأهالي ، جعفر وزعماء الثورة في سورية .

تهديد سلطان الفاطميين في سورية ٤٣

١ — القرامطة : سبب الحرب بين الفاطميين والقرامطة ، التحالف بين جعفر وأمير الرحبة الحمداني ضد القرامطة ، نشوب القتال بين الحسن وجعفر ، هزيمة جعفر .

٢ — أفتسكين : أصله ، استنجد أهل دمشق به ، دخوله دمشق ، اتحاده مع القرامطة لطرد الفاطميين ، إسناد قيادة الجيوش الفاطمية في الشام إلى جوهر .

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر ٤٨

حملة القرامطة الأولى على مصر : مسير القرامطة إلى الرملة ، وصولهم إلى القلزم ، وصولهم إلى القلزم ، اعتراف مدينة تنيس بسلطانهم ، القرامطة في عين شمس ، تهديدهم القاهرة ، استعداد جوهر لقتالهم ، رجوعهم إلى القلزم ، قضاء جوهر عليهم ، موقف الإخشيديين .

صغيرة

حملة القرامطة الثانية على مصر : كتاب الممنون إلى الحسن زعيم القرامطة ،
رد الحسن ، استعداد الممنون للقتال ، القرامطة وجلاؤهم عن مصر .

الدعوة الفاطمية في مصر ٥٣

(أ) قبل الفتح :

العوامل التي دعت الفاطميين إلى اختيار مصر مقراً للدعوة الشيعية
بدلاً من بلاد المغرب ، الحملات الفاطمية وأثرها في نشر المذهب
الفاطمي في مصر ، انتشار الدعوة الفاطمية في مصر في عهد الإخشيد ،
استقبال كافور دعاة الفاطميين .

(ب) بعد الفتح :

جوهر وإقامة الخطبة الممنون : الدعوة الفاطمية في المساجد : في جامع
عمرو ، في جامع ابن طولون ، في الجامع الأزهر ، التحاليم الفاطمية في
القصر الفاطمي ، داعي الدعوة .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر ٦٣

سياسة جوهر العامة في مصر : قصر مناصب الدولة على المتشيعين ،
إقصاء جوهر السنين عن المناصب تدريجياً ، جباية الخراج ، الوزارة ،
القضاء ، الحسبة ، موقف جوهر إزاء سلوك المغاربة .

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة ٧٤

المواضع الإسلامية في مصر قبل القاهرة : الفسطاط ، المعسكر ،
القطائع ، سبب إنشاء القاهرة ، تسميتها ، موقعها ، سورها ، ظاهرها ،
القصر المعزى ، أبواب القصر ، قصر العزيز ، بين القصرين ، أبواب
القاهرة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفنوح ، حالة مصر العامة في

عهد جوهر

٩١ ^{صفحة} بناء الجامع الأزهر
المساجد الجامعة في مصر قبل الأزهر : جامع عمرو بن العاص ، جامع
العسكر ، جامع ابن طولون .
سبب بناء الجامع الأزهر ، تسميته ، وصف الجامع الأزهر : مقصورة
جوه ، مقصورة الأمير عبد الرحمن كتنخدا ، أعمدة المقصورتين ،
صحن الجامع الأزهر ، محراب جوه ، محاريب الجامع الأزهر ، منبر
الأزهر ، تحويل الأزهر إلى جامعة في عهد العزيز .

الباب الخامس

حياة جوه في مصر بعد قدوم المعز إليها

٩٨ قدوم المعز إلى مصر
خروج المعز من المنصورة ، استخلافه بالسكين على إفريقية ، وصوله
إلى برقة ، دخوله الأسكندرية ، استقباله ، خطبته ، وصول المعز
إلى الجيزة ، استقبال جوه له ، وصوله إلى القاهرة ، دخوله القصر ،
استقباله الأشراف والقضاة والعلماء ، هديتا جوه وأبي جعفر مسلم
للمعز ، صلاته في مصلى القاهرة ، هديتا المعز لجوه ، صرف جوه
عن ولاية الأعمال العامة في مصر ، إسناد الأعمال إلى يعقوب بن كلس
وهسلوج بن الحسن ، سبب صرف جوه .

١٠٤ تثبيت سلطان الفاطميين في سورية
خروج جوه إلى سورية ، احتلاله الرملة ، ولاء أهل دمشق
لأفتسكين ، نزول جوه بظاهر دمشق ، الحرب بينه وبين أفتسكين ،
هزيمة أفتسكين ، مسير جوه إلى الرملة ، تعريجه على عسقلان ،
محاصرة القرامطة وأفتسكين لعسقلان ، المفاوضات بين جوه
وأفتسكين بشأن الصلح ، مرور جوه تحت سيف أفتسكين وريح
الحسن ، عودة جوه إلى مصر ، خروج العزيز مع جوه إلى الشام ،

صغيرة

طلب العزيز المهادنة من أفتسكين ، رفض أفتسكين ، الحرب بين القرامطة وأفتسكين وبين العزيز ، هزيمة الحسن القرمطي وفراره ، فرار أفتسكين والقبض عليه ، أفتسكين في مصر ، عفو العزيز عن أفتسكين وأثر جواهر في ذلك ، إكرام العزيز لأفتسكين ، وفاة أفتسكين

١١٣

تقدير جواهر

الباب الثاني

دولة الفاطميين التي أقامها جواهر الصقلي في مصر

- ١ — خلفاء العصر الفاطمي الأول ٣٦٢ — ٤٨٧ هـ ١١٩
- ٢ — خلفاء العصر الفاطمي الثاني ٤٨٧ — ٥٦٧ هـ ١٢٧
- ٣ — تقلص سلطان الفاطميين ١٢٩
- ٤ — سقوط الفاطميين ٥٦٧ هـ ١٣٢
- ٥ — تقدير الفاطميين ١٣٦
- مصادر الكتاب ١٣٩ — ١٥٢

الصور والخرائط

- ١ — خريطة اتساع الدولة الفاطمية ١٩
- ٢ — جامع عمرو بن العاص ٥٩
- ٣ — جامع أحمد بن طراون ٦١
- ٤ — خريطة القاهرة في عهد الفاطميين ٨٠
- ٥ — خريطة لإتساع مدينة القاهرة ٨١
- ٦ — الجامع الأزهر ٩٢
- ٧ — بعض عقود الجامع الأزهر — وهي من عهد إنشائه . . . ١٢١
- ٨ — منارة جامع الحاكم ١٢٣
- ٩ — جامع الأقمر — الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي . . . ١٢٧
- ١٠ — خريطة الدولة الفاطمية ١٢٩

الباب الأول

جواهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جواهر قبل اتصاله بالمعزة:

إن للبيئة التي ينشأ فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً في أعماله ،
وبدراستها يسهل الحكم على حياة الرجل عما يحيط به من المؤثرات ، لذلك يجب
أن نتكلم على جزيرة صقلية ، ، موطن جواهر الأصلي .
ولد جواهر بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتراف
مولده رومي الأصل^(١) ؛ وكان العرب يطلقون على أهالي الدولة الرومانية
(الشرقية والغربية) اسم الروم .
وقد ظلت صقلية^(٢) ، موطن جواهر الأصلي ، تحت حكم الرومان حتى

(١) ذكر المقرئ (الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) أن جوهراً ، ملوك رومي وباه
المعزدين الله ، . كذلك أطلق عليه ستانلي لين بول (The Story of Cairo p 117)
اسم « العبد الرومي »

(٢) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والبهض
يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام . وهي من جزائر البحر
الأبيض المتوسط ، بينهما وبين افريقية مائة وأربعون ميلاً . وهي جزيرة خصيبة
كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها
جبل النار الذي يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة
لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه ، وقيل لأنه كان في هذا الجبل معدن الذهب ،
وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو ، ومن أكبر مدنها
الحاضرة . ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٢٧٣ — ٢٧٦ .

(١ — جواهر)

فتحتها الاغابة^(١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وذلك فى عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت^(٢) أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة لأمرة الجند مألوفة عند المسلمين ؛ فطالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا فى الغزوات ما بين شاذية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت فى عداوة مستمرة مع المسلمين بحكم الجوار فقد ولى القاضى يحيى بن أكرم قيادة الجند فى عهد المأمون لقتال البزنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها فى كتابه ، تاريخ صقلية ، وصفها دقيقاً مسمياً ، فتسكلم هن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادها وثمارها وفراكمها ، وما بها من الأبقية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذى رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى وصل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة وانخذها حاضرة لدولته ، وكتب عنها كتاباً سماه دحاسن أهل صقلية ، وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخالصة ، كما قال أن عدد ماشيده المسلمون فيها من المساجد يزيد على الثلاثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الإسلام فى هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذى شاهد كثيراً من ممالك العالم

(١) أسس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية فى سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فوليا هو وأولاده من بعده إلى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) .

Stanley Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٤

المختلفة. (١) وقد أهدى لروجر الثاني ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية في تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الإسلامي مرعى خصيباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة في تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد ، وترجمت في هذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربي بين أهلها ، وبخاصة المعلقات السبع (٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه روجر الزماندى عن العرب من المثل العليا للقروسية أثر كبير في ارتفاع شأن أمرته . أضف إلى ذلك ما أخذه عنهم من النظام الإدارى واستعانته بالموظفين المسلمين في إدارة شئون دولته (٣) .

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية في هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوروبا من حيث الحضارة والمدنية . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية في هذه البلاد ، حتى كان الملوك من الزماندين يجيدون التسكلم بها . وقد أفسحت اللغات الإغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية

(١) كتاب نزعة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقرئى أن جميع البلاد التى ذكرها الإدريسي كانت مكتوبة على ستور حريرية بالقصر الفاطمى في القاهرة . الخطوط ج ١ ص ٤١٥

(٢) كان عند العرب في الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب . فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران السكينة تسكريماً لأصحابها وإشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة ، وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الإسلام سبعمائة .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفتح الزماندى قد عبر الطريق للمهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للزمانديين (١) .

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية في نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكا بأهدابه ، مثقفاً تثقيفاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة في هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها الإغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالآداب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير (٢) . ومن ثم اختار رجال دولته من بين المغاربة وأهل صقلية من اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرياه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما هي أخبار مبعثرة لا تمثل لنا حياة هذه الأسرة التي نشأ بها جوهر تمثيلاً صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السنة التي ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى القسطنطينية ، بعد مقابلاته له ومفاوضته إياه بشأن

(١) Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam
Sicily, S . V.

(٢) Stanley Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 116

الصلح سنة ٣٥٨ هـ . عن سنن جوهر فقال : « نيف وخمسون سنة » (١) . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتي ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقرئ من أن جوهر أقد توفي سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لسكانت ولادة جوهر بين سنتي ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ (٢) . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقرئ أن جوهر أقال لابن عمار في سنة ٣٨١ هـ ، وهي السنة التي مات فيها جوهر ، لقد « نيفت على الثمانين » (٣) . والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقرئياً لسن جوهر من أبي جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلماً أو أحمق بعد ولادته . والذي يغلب على الظن أنه ولد مسلماً . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبد الله هذا قد بادر إلى الإسلام الذي كان منتشراً في هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهر أ قد شب على دين أبيه أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئاً عن إسلامهم ؛ وكل ما ذكره عن سلسلة نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبد الله . وأهل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقبلما يتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيراً ما يكون عرضة للغموض والإبهام .

(١) المقرئ : انماط الحنفاس ٧١

(٢) الخطط ج ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي هبة الله . وكان ذا مواهب
فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه ، بالقائد
ابن القائد ، (١) .

جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن قنع مصر :

شب جوهر في حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز .
وبعدنا المقرئ (٢) أن المعز قد اختص جوهر أ من بين مواليه وكناه بأبي
الحسين . وقد قرره الخليفة الفاطمي لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمواهب
الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهر الصقلي » نسبة إلى موطنه الأصلي
« صقلية » ، ويظن لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضموا تحت لواء
الفاطميين وحاربوا في صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم في بلاد المغرب سنة
٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقلية » في كثير من المصادر التي يعتمد
عليها في تاريخ الفاطميين . وقد شاع إطلاق لفظ « الصقلية » على سكان جزيرة
صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن « الصقلية » من الجنس السلافي ، ومنه
الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالي البلاد المحيطة بالبحر الأسود .
وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هي « الصقليين » لا
« الصقلية » .

ظل جوهر يتدرج في سلك المناصب ببلاد المغرب حتى انخذه المعز في
سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .

(١) المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ١٤

(٢) الخطوط ج ١ ص ١٥٢

ولا بد أن يكون المعز قد خبر جوهرًا وعرف ما امتاز به من الصفات والمزايا قبل أن يلى الخلافة بزمان طويل ، إذ يعد كل البعد أن يطفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذ المعز كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وهى السنة التى ولى فيها الخلافة . فقد كانت السكتابة إحدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فرقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ . ولا فرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جم الأدب فى كتابته . يتبين ذلك فى عهد الصالح الذى كتبه المصريين ، ذلك العهد الذى سنأتى على ذكره فى الباب التالى . وقد كان لهذه الصفات أبعاد الأثر فى تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمى .

ويحدثنا ابن خلدون^(١) أن المعز بعث جوهرًا (صفر سنة ٣٤٧ هـ) ، لفتح ما بقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد المنتهajian الذى استخلف المعز ابنه بلسكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ . صار جوهر إلى تاهرت^(٢) فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز

(١) ج ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيهرت) اسم لمدينتين متجاورتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

أهلها مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يسم سجلماسة^(١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأمره . ثم أمعن جوهر السير في بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي^(٢) . وقد أراد أن يبرهن للمعز إلى أي حد وصلت جيوشه في فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك في قلال من الماء وبعثه إلى المعز ، وأعلمه أنه قد استولى على مامر به من المدائن والأمم وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها ،^(٣) .

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستعصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وحالج فتحها من جديد ، وقد تم له ما أراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضمهما في قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو في المدينة .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التي بدأها أبو عبد الله الشيباني سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختره لقيادة الحملة التي أرسلها لفتح مصر ، ولقبه بالقائد .

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجري فيها نهران أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرض مسبحة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان ستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكري ص ١٤٨ — ١٤٩)

(٢) المقرئ : الخطاط ج ١ ص ٢٥٢

(٣) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٨

وقد ذكر ابن خلكان^(١) أن جوهرأ مرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . لحزن المعز وعاده بنفسه في يديه، وهو شرف لا يناله إلا المقربون . وكان نفس المعز كانت تحذره بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : وهذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه . . وقد تحققت نبوءة المعز ، فشفي جوهر من مرضه . وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .

(١) ج ١ ص ١١٩ .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 99

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

ماز مصر قبيل الفتح الفاطمي:

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمي تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٣٢٣ هـ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ هـ حيث فتحها جوهر قائد جيوش الممزر لدين الله .

وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣٢٣ هـ . وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والرخاء شاملاً ، والبلاد لاتزال قوية بجندها الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم قبة اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف في وجهه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدي . وقد زاد كل ذلك في قوة الإخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التي أغارت على هذه البلاد في عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وقد كانت الصلة بين الإخشيد والخليفة العباسي على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم^(١) . وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة إلى أن جاء ابن رائق لصراف الإخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لانعجب إذا ثارت فتوة الإخشيد ، فكاتب إلى نائبه في بغداد لاستطلاع رأي الخليفة الذي لم

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧١

يحتفل به ولم يرد عليه بشيء . وكان من أثر ذلك أن أمر الإخشيد بإلغاء الخطبة للخليفة العباسي وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمي محله . وهذا العمل — كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت في أواخر أيام الإخشيد إلى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة في بغداد بين توزون والبريدى اللذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أنوى ولأنه في ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقبه الإخشيد في مدينة الرقة^(١) وعرض عليه البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذي تعهد بحماية الخليفة ، فعاد الخليفة إلى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرع لهده حرمة ؛ فقد سمل عين الخليفة وحبسَه ثم قتله^(٢) . وجاء بعد ذلك بتوبويه لنصرة الخليفة العباسي الذي لم يلبث أن أصبح ألعوبة في أيديهم .

مات الإخشيد في فلسطين في شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ ودفن في بيت المقدس ، فخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور^(٣) وهو في الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصبياً مملوكاً لأحد أهالي مصر ، فاشتراه منه محمد بن طعيج مؤسس الدولة الإخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد . وقد ذكر السيوطي^(٤) أن الإخشيد اشترى كافوراً بثمانية عشر ديناراً ؛ وذكر

(١) بلدة واقعة بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (١ ص

٥٤٥) والسيوطي (ج ٢ ص ٣٧٣)

(٤) حسن المحاضرة (٢ ص ٣٧٣) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣١) وأبو

المحاسن (ج ٢ ص ٣١٥)

المقريري^(١) أنه أرسل بهدية لمحمد بن طنج ، فتوسم فيه الدكاه وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الإخشيد ترقى كافور في بلاطه ، فاخصه الإخشيد من بين عبيده ومنحه ثقتَه حتى جعله أنابك^(٢) ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن على . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى في كافور النجاة والهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طنج إلا هذا العبد .

ولما توفى الإخشيد وخطفه ابنه أبو القاسم أنوجور قبض كافور على زمام الأمور في كافة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهي مصر والشام والحجاز وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التي قام بها المصريون في وجهه . أضف إلى ذلك ما أصابه من الفوز في طرد أبي الحسن على الملقب بسيف الدولة الحداني من دمشق ، والحيولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذي دلت عليه هذه الغنائم التي استولى عليها المصريون في هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ؛ فخاطبه عليه القوم بالاستاذ ، ودعى له على المنابر في مصر والشام والحجاز^(٣) باسم أبي المسك^(٤) كافور ، تلك التسمية التي كناه بها الخليفة العباسي . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده في كافة شئون البلاد^(٥) .

(١) الخطاط ج ٢ ص ٢٦

(٢) أنا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أي أبو الأمير أو مربي الأمير

(٣) ذكر المقريري (الخط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالي القسطنطينية والرملة وطبرية

لم يدعوا للإخشيد قبل . ٣٤ هـ .

(٤) أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التلميح والمشاكلة ، لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعابة في إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 101.

(٥)

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين أنوجور ، وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية والكافورية . ومات أنوجور في ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته بالسم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد وهو في الثالثة والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالامر دونه وعين له — كما عين لأخيه من قبله — أربعمائة ألف دينار في كل سنة^(١) ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقرئ أن أبا الحسن اعتل بعلته أخيه ، وأنه مات كذا الحرمانه من سلطانه الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ هـ) . وقد حال كافور بعد وفاة أبي الحسن دون تعيين ابنه أحمد ، بحجة أنه غير صالح للحكم أصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير عدة أيام . وفي المحرم من سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة المطيع العباسي بتقليده ولاية مصر والبلاد التي تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودعى له بعبد الخليفة على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة والوالى^(٢) .

ولم يكف كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ هـ حتى ارسل الممنون الفاطمي جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ، جهز كافور جيشاً طردهم وقتل منهم عدداً كبيراً . على أن كافورا قد أحسن استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه في بلاطه من قبل الممنون يدعونه إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي الكثيرون من الكتاب والجنود الإخشيدية والكافورية .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٥

(٢) المقرئ : ج ص ٢٦ — ٢٧

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختتمت في نفوس المصريين . ولا شك في أن الحالة السيئة التي سادت هذه البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الإخشيديين عن هذه البلاد . فقد انتاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذي بدأ في سنة ٣٥١ هـ ، وما تبعه من انتشار القحط وتفشي الوباء . فاشتد الغلاء ونذر القمع ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تسكين الموتى وعن مواراتهم ، حتى قيل إنه كان يلقى بجثث الموتى في النيل لكثرة ما^(١) . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التي أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى اخميم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلبائه^(٢) فتسكروا له وثاروا عليه^(٣) .

توفي كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو في الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن في دمشق^(٤) . وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب . وكان المذهب الفاطمي في هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطارد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الإخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقرئى أن عدد هؤلاء الغلبان بلغ ألفاً وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

Lane-Poole : The story of Cairo p. 103

(٤)

وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وانتقضت أماراتها ، واقتطعت منها دويلاتها ، ونار عليها ولائها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ؛ وغدا الخليفة العباسي أشبه شيء بالعبودية في أيدي بني بويه (٢٣٤ - ٤٤٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لما وئته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسي قد اضمحلت في ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا في الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهلين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ما حدا بسلاطين بني بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة (١) .

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شيء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من العمر (٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن ابن عبيد الله أخى الإخشيد فآرا من وجه القرامطة ، فأمره المصريون على الجيش . فاستبد بالأمم وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام (٣) وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن ابن عبيد الله إلى الشام ستة ٣٥٨ هـ ، نحواً من خمسة أشهر تحت إدارة ابن الفرات ، وصلت في أثنائها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن في نصابه وتخفيف ما حل بالأهلين من المصائب والويلات (٤) .

Gibbon: Decline And Fall of the Roman Empire, VI. p. p. 54—55 (١)

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٧

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥ و ٦٥

Lane—Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 89—90

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر ، وعجز
العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام الممار
الفاطمي لفتح مصر ، ذلك الأمر الذي تم على يد جوهر القائد وهو ماسنيدته
في الفصل التالي .

فتح مصر :

عن الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يزيد في رفعة أملاكهم
ولأن استيلاؤهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التي كانت
خاضعة لسلطان الأخشيديين وهي الشام والحجاز ، ولاغرو فان موقع مصر
الجغرافي بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض
الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في
الشرق . لهذا لا نعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدي يدأبون
على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل
عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات
لغزو مصر : الأولى في سنة ٣٠١ هـ ، والثانية في سنة ٣٠٧ هـ ، ولم تنته إلا في
سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الحملة الثالثة في سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد
القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث في الاستيلاء
على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت في ذلك الوقت من
القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر في المسدة الباقية من خلافة
القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) . لأن
العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان في استطاعتهم الدفاع عن مصر
ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب قد
حالت دون تحقيق الغرض الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو فتح مصر .
(٢ - جوهر)

وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثر ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد ،
الذى قام بغتة أشد وقمها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت
بيت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ -
٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى
الواحات . ولما كان كافوراً الإخشيدى صده وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ما عزم عليه من فتح هذه البلاد .
وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد
ثورة أبي يزيد ، ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى في مصر على أثر وفاة
كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ،
أضف إلى ذلك عطف المنتشيعين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز
يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد أحب يعقوب بن كاس^(١) دوراً هاماً في توجيه نظر المعز إلى حالة
الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور .

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد في بغداد وصحب أباه وهو في صباه إلى الشام . ثم
جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة في يده في عهد
أنوجور وأبي الحسن علي ابني الإخشيد فأحله كافور من نفسه محل العطف والرعاية
لما آتته فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه في ديوانه الخاص . ولم تزل
حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة ، وقد أسلم في شهر شعبان سنة
٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ،
فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات
الدولة في الأمر وبعد أن بذل له ابن كاس الأموال . على أن ابن كاس لم يأمن على
نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله
على رجوه ضعف مصر وحشده على النهوض بغزوها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل
ابن كاس في بلاد المغرب حتى هاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المعز .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد أمر المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال للقيام بنغمات هذه الحرب .

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق . فلم يأل جهداً في إعداد جيش كثيف وتزويده بالعدد ، حتى قيل إن عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أعادق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال — على ما ذهب إليه المقرئ — أربعة وعشرين مليون دينار .

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التي ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول : « ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . » (١)

وقد رأى المعز في جوهر الرجل الذي يعتمد عليه في القيام بأعباء هذه الحملة . ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفاضل الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية . فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز ، بفضل ما أظهره جوهر من المهارة الحربية ، وكان لجوهر أثر في نشر هذا السلطان . فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التي أعدها لغزوها . وعما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة (٢) لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر : والله لو خرج

(١) المقرئ : انعاظ الحنفا ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) رقادة: تبعد عن القيروان بأربعة أميال ، وقد وصفها أبو عبيد الله البكري

جواهر وحده لفتح مصر ، وابدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ،
ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقهر الدنيا ، . واقف من عبارة
المعز على ثلاثة أمور :

الأول : غلو المعز في مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر
وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش
السكنيفة . وقد كان لشقة المعز بجواهر الأثر الكبير في نفسه مما جعله يتفانى
في القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثاني : وقوف المعز وقوفاً تاماً على أسس وال مصر وعجزها عن صد
الجيوش الفاطمية .

الثالث : أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين في موضع
خرائب القطائع التي أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه
الديني والسياسي على بلاد الشرق ، أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة
بهذا الاسم « القاهرة » ، كان في نفس المعز قبل تأسيسها على يد جواهر ،

= في كتابه : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، (ص ٢٧) فقال : (إنه بكثرة
البيسانين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل ولا أطيب تربة منها .
وقيل أن أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى
موضع رقادة . فنام فيه نوماً مادناً . فسعى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة »
واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثاني (٢٦١ - ٢٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) .
ومن ثم أخذت في العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً
من وجه أبي عبد الله الشيعي ، فسكنها عبيد الله المهدي إلى أن اتخذ مدينة المهدي حاضرة
للملكة وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة في الخراب شيئاً فشيئاً حتى
أصبحت أثراً بعد عين .

يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور
القاهرة ، الذي اشتق منه اسم هذه الحاضرة . ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر
عندهذا الحد . فقد ذكر لنا ابن خلكان أن الخليفة الفاطمي أمر أولاده
ورجال دولته بالترجل بين يدي جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه
على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر ، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل
لجوهر عند إقامته وتقبيل يده . وقد ~~كبر~~ ذلك على الوالي وبذل مائة ألف
دينار على أن يعفى من ذلك ، ولكنه لم يظفر بشيء . وبعد أن قبل جوهر
يد الخليفة وحافر فرسه أذن له بالمسير . ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر
كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه ^(١) .

خرج جوهر من القيروان ^(٢) في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة
٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال
على الجمال ، وجند يربو عدده على مائة ألف ^(٣) ، وخيل يزيد عددها على عدد
الجند بكثير . ويحدثنا ابن زولاق أن أبا جعفر مسلم العلوي الذي تم الصلح
بين المصريين والفاطميين على يده ، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار
عسكر جوهر فقال : مثل جميع عرفات كثيرة وعدة ^(٤) . وقد وصف ابن
هانيء الأندلسي شاعر المعز هذا الجيش في قصيدة طويلة قال في مطلعها :

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٥ ، المقرئ : الخط ج ١ ص ٣٧٨ .

(٢) القيروان : أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة
رقادة ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة (البكري : كتاب المغرب
في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧)

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

(٤) المقرئ : أتعاط الحنفا ص ٧٩

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم الحشر أروع
غسادة كأن الأفق قد سد بمثله فماد غروب الشمس من حيث تطالع^(١)

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أورد به
المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير
مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين^(٢)

من هذا نرى أن جوهر أ كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف
بها قلوب المصريين . فقد حال دون ماعساه ينجم من الشعب وأعمال السلب
والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إخداقه
العطايا والأرزاق على جنوده بما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا
يفسر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين علموا باستيلاء جوهر على
الإسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار الدولة
للنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ،
واندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطالب
الأمان على أرواحهم وأملاكهم . فأتاب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو
من الأشراف العلويين ومن ذوى المسكاة عند المصريين . فقبل أبو جعفر
القيام بهذه المهمة ، واستنصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ
فى البلاد .^(٣)

وكان إسناد رياسة هذا الوفد إلى أبى جعفر من الأمور التى دلت على

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسى ص ١٠٦ — ١١٢

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

(٣) السكندى ص ٦٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

حكمة ابن الفرات وبعد نظره ، فقد كان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبباً في إجابة مطالب المصريين . وقد تجلّى ذلك في هذه الوثيقة التي اشتملت على شروط الصلح . وقد توجه هذا الوفد في يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيعة جمع كبير من الأهالي (١) .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر في مدينة تروجه (٢) ، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذي أودعه جوهر في هذه الوثيقة التاريخية التي ننقلها عن المقرئ في ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر السكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطلال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرضى أيداه الله وأبو الطيب الهاشمي أيداه الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم كتاباً يشتمل على أمانتكم في أنفسكم وأموالكم وبلاذكم وجميع أحوالكم ، فعرفتكم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدابوا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن لإخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعرازكم وحمايتكم والجهاد عنكم

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٦

(٢) بلدة قريبة من الاسكندرية

لإذ قد تخطفتمكم الأبدى واستطال عليكم المستذل والممتعة نفسه بالاقنطار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما قبله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكده عزمه واشتد كلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبإفاد الجيوش المظفرة دونكم وبجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين همهم الخزي وشملتهم المذلة واكتشفتهم المصائب وتتابعت الرزايا وانصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يفتهم إلا من أرمضه أمرهم وأمضه حالهم وأبكى عينيه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عوده وأرجاء عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ، أن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روح من لم يزل في خوف ووجل وأثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ففسكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتقاد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تهوید السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة ونقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما أعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحمم الظلم ونطع العدوان ونفى الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الصدقة والإحسان

وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقار الأحوال وحياطة أهل
البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم
إلا على ما لم شعئهم وأقام أودهم وأصلح بأهم وجمع قلوبهم والف كلتهم
على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به
مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرضى صلوات الله عليه بإثباتها
عليكم ، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من
المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وإن اتقدم في ريم مساجدكم
وتزيينها بالفرش والإيقاد وأن أعطى مؤذنها وقومتها ومن يؤم الناس فيها
أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإحالة
على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولاه وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله
عليه بما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً للنسب
ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطميناً لأنفسكم . فلم يكن
لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة
وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في
العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف
الامة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت
الأحكام بمذاهبهم وفنواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان
وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونهيه
صلى الله عليه في سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان
الله التام العام الدائم المنصل الشامل السكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرو
الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم
وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن
ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم نصابون وتحفظون وتحرسون ويدب

عنكم وبمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا بسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قوكم فضلاً عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمدكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خير . وتعرفون بركنته وتفتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصريحون بها وتعلمون بالانصراف إليهما وتخرجون إلى وتسلمون على وتسكنون بين يدي إلى أن أهير الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتشاركون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ، (١) .

هذا هو نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفي هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكيناً لأواصر المودة بينه وبين رجال مصر خاصة وأليفاً لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوى على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . ونحن نعلم ما المآدب من الأثر في حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ في هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول : تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمأنينة في النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التي كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ،

(١) المقرئى : اتعاظ الخلفاء ص ٦٧ — ٧٠

وكان من الطبيعي أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التي كان يهددها خطر القرامطة . ولا شك أن حالة الضعف التي وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، وما نزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل — كل ذلك قد أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد . ولم يحل جوهر هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وهو حماية الأهالي من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثاني : ترك الحرية للمصريين في إقامه شعائهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر في أمورهم . على أننا نرى جوهر لم يغفل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحقيتهم في الخلافة ومعنى ذلك تمهيد السبيل لنشر المذهب الشيعي مذهب الفاطميين .

الثالث : قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيغ ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التي يعنى بها كل فاتح مصلح .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى القسطنطينية بحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالي فلم يقبلوه . وصمم الإخشيديون وجماعة كافور والجند على مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجيزة وأخذ يستعد لملاقاة العدو ^(١) .

وفي الحادى عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجيزة وسار إلى منية الصيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ، فلحق به جعفر بن فلاح (الذى تولى فتح الشام فيما بعد)

(١) ابن خلسكان ج ١ ص ١٤٩ . ويحيى بن سعيد عن ١٣٢ و ١٣٣

فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليسكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أرادك المعز ا فخلع جعفر ثيابه وعبير النهر مرتدياً سراويله ، فتبعه المغاربة ^(١).

لحق الإخشيديون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالجنود المصرية أن عبر بعض فالتهم النهر وسلكوا إلى جوهر ، ومن ثم سمل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا مرابطين على المخاضة لحراستها . فتمد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبير النيل مع رجاله في السفن ، وافقضوا عليهم وشقنوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٥٣٥٨ هـ) ^(٢).

وبذلك تم فتح مصر ودخلت في حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ما امتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لانعجب إدارأينا المصريين يخشون هاقبة خروجهم على العهد الذي عرضه عليهم الوفد الذي أنابوه عنهم في مفاوضات جوهر في الصلح فيرجون أبا جعفر مسلم العلوي أن يتدخل في الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهر قد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدأوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٢) أبو الحسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقرئى : اعماظ الخفا ص ٧٢

وهنا نرى جوهرًا يقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بيانًا يحرم فيه عليهم الإتيان بأي عمل من أعمال العنف والشدّة ، كما جسد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن في البلاد في ذلك الكتاب الذي ينم عن أدب القائد الفاطمي وتواضعه وهو في كامل قرته وفتوته . وهاك نص هذا العهد بعد البسملة نقلًا عن المقرئ :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عره وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون فوقفنا على مأسا من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلنا إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى ومن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبنا إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الحاربيين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان » (١) .

وبذلك زالت مخاوف الأهاليين وأصبحوا فى أمن ودعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علمًا عليه اسم المعز لدين الله وأمنّا الناس من جديد وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة فابتهج الناس وبدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر : الأرض ، فقبلوا كلهم الأرض بين يديه عدا الشريف

(١) المقرئى : اتماظ الحنفا ص ٧٢

والوزير . وتقدم الناس واحدا واحدا ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى
المسحط .

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق
المملوءة بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جرهز في حلة مذهبة في فرسانه
ورجالته وعسكر بجيشه في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة . وحين
ذهب المصريون في اليوم التالي لتبنيته جرهز وجدوه قد حفر أساس قصر
المعز في الليل^(١).

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سر سرورا عظيما وأنشد محمد بن مانى -
شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
قد جاوز الاسكندرية جرهز تصاحبه البشرى ويقدمه النصر^(٢)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعاً عن مصر وأصبحت
هذه البلاد ولاية فاطمية . فعدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى
غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . وناقت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية
الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السفلى المتداعية . وقد كان لتلك
المنافسة أبعاد الأثر في الحضارة ،^(٣)

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمذمهم إلى
بلاد الشام وفلسطين والجزيرة التي كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية
وبذلك تحقق الغرض الأول الذى كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء
دولة فاطمية في الشرق والغرب^(٤).

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ والمقريزى : انعاظ الخلفاء
ص ٢٧

(٢) ديوان ابن مانى الأندلسى ص ٦٨

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 119-120

(٤) Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

باب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية :

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلائهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية في المشرق والمغرب ، حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية . ولم يحمل الإخشيديون — وقد دالت دولتهم في مصر — ما كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله بن طنج الإخشيدى والى الرملة ودمشق العسدة لملافاة الفاطميين ، فاستخلف شمو لا الإخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمو لا لم يخلص للحسن ، وكاناب جوهر ا يدعوه للحضور إلى دمشق ووعدته العون على فتحها . ثم تقاعد عن نصره الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، في الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح ، من قبيلة كنانة من البربر وأحد فواد المعون الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما عزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهر ا أراد بذلك أن يبعد جعفر ا عنه ويطوح به في بلاد الشام حتى

لا ينافسه في مصر . فقد كان جعفر يرى في نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بإمرة مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكان ولادة الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز وبمدهم حسن المكافأة ، ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن محبوب الله في الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده (١) ، ثم سيق إلى القسطنطينية ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة فانك الذي وليها من قبل الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالهم . وقد اتفق ووصلهم في اليوم الذي قتل فيه فانك وإلى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعمادوا إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة (٢) . وهذا يفسر لنا الصعوبة التي لاقاها جعفر في استيلائه على دمشق .

بعد أن هزم جعفر بنى عقيل ومن إليهم من العرب في حوران وطارد الغالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قد تركها للملافة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى في المدينة وعم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت

(١) أبو المعاضج ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٨١

المغاربة على جند الشام وهزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألغوا النار في أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لا قبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى رأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن خمدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهلون بدا من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا إليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يديه^(١) ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم في الحديث واستقر رأى بيده وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق . وفي ذلك اليوم ركب جعفر في أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمي ، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٥٩ هـ^(٢) . وقد انتهر أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فنبهوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بدا من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم مما حدث وطلب الأمان من جديد . فقال لهم : دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم^(٣) . ثم هددهم باستعمال

(١) المقرئى : انماط الحنفيا ص ٨٢

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٩

(٣) المقرئى : انماط الحنفيا ص ٨٣

الغنف والقسوة معهم، فبدأوا روعه وتلطفوا منه في القول، حتى وعدم العفو
إذا هم دفعوا دية من قتل، فجمعوا له الأموال السكينة حتى ساءت حال المدينة
لما نزل بأهلها من الإرهاق.

من ذلك يتبين لنا هودة جعفر في ضبط جنده وكبح جماحهم حتى يبلغ بهم
الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل
دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم وأيائهم، مما أثار نفوس الأهالي عليهم
ووقف حاجر هجرة في سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر
وبعد نظره وحسن سياسته، فانه لما دخل الإسكندرية أمر جنده بالسكف
هن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها إليه، مع أن
جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن
فلاح الذين وجههم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين.

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ في دمشق وأنه لن يستطيع
توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة، فأرسل جنده من
المغاربة في طلبهم، فقبضوا عليهم، فأمر جعفر بهم فضربت أعناقهم وصلبت
جثثهم وعلقت رؤوسهم على الأبواب، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عسودا
ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عسودا، وكانا من
أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبي يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض
عليه عند تدمر وأرسل إلى جعفر حيث شهر به. فحمل على جمل وفوق رأسه
قلنسوة وفي لحيته ريش، ويده قصبة^(١) ثم بعث به إلى مصر. وقد ذكر
أبو الحسن^(٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد، قال ابن فلاح: من
أتاني به فله ألف درهم. فلقيه ابن خلبان العدوي فقبض عليه وساقه إلى

(١) المقرري: اتعاط الحنف ص ٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

ابن فلاح فشهر به. ثم طلبه ليلا وقال له : « ما الذى حملك على ما صنعت ، ومن ندبك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ما حدثنى به أحد وإنما هو أمر قدر ، فرق له جعفر ووعدده بأن يكاتب فيه القائد جوهرأ . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمه . أما محمد بن عسودا فقد لحق بالقرامطة في الأحساء هو وظالم بن موهوب العقيلي وإلى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذى كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جعراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدّة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستمطار بأرواح الأهالي ، أثر سيء في صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتأمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء في استنجد أهل الشام بالقرامطة وأفتكبن مما سنفصله بعد .

تهريب سلطان الفاطميين في سورية :

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعم القرامطة الحسن ابن أحمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطي في أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسي السفى في بغداد ضد الفاطميين الشيعة في مصر . بيد أن الخليفة العباسي قد رفض التحالف معه . ففكر الحسن في استئالة بنى بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ القوي في بلاد العراق ،

فرفض هؤلاء أيضاً أن بحالفوه ؛ ولم يقبل التحالف معه سوى أمير الرحبة^(١) من الحمدانيين وبعض القبائل العربية^(٢) .

وقد سار الحسن القرمطي الملقب بالأعصم إلى الدكة^(٣) حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تخاذلت عنه وانفضت من حوله ، فمزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ) وقد عثر محمد بن عسودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه وصلبه على سائط داره ، انتقاماً لأخيه إسحق الذي قتله جعفر وصلبه^(٤) .

بذلك انتهت حياة القائد الذي نشر سلطان الفاطميين في سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التي قامت في وجهه .

وقد عزا المقرئ ما حل بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطأ وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع من جوهر وعن عليه أن يكاتبه وكاتب المعز موقفاً في جوهر ، مييناً ما بذله من الجهد في فتح بلاد الشام وفلسطين^(٥) . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه ينبهه إلى ما ارتكبه من سوء التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكانة جعفر في نفس المعز ، تلك المكانة التي لم تفقده شيئاً بجانب تماسك المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفراً من الصعاب في

(١) الرحبة : بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٣٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة : بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١ .

(٥) الخطاط ج ١ ص ٣٧٨

فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكانة جوهر وطلب الإمداد منه خشية أن يتقاعد عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطي وأوقع بجمفر وأرداه قتيلاً . وقد وجد على باب قصر جمفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يا منزلا عيث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع؟

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمي المعز على منبر المسجد الأموي بدمشق . وقد علق الدكتور De Lacy O'Leary على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهي للإمام الفاطمي . ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سفيين غالبين في عدائهم للشعبة أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل علي والذين لا يكثرنون بالاهتبارات الدينية أياً كانت » (١) .

(١) أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه . ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغلب على عز الدولة بمختيار بن معز الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين بالشجاعة والإقدام ، إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة في نحو أربع مائة رجل . فنخسبه العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بعلبك ، بعد أن بعث إلى أبي محمود إبراهيم بن جعفر والي دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعلمه

بأن أفتسكين قد غادر بغداد وأنه في طريقه إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي . فأرسل إليه والي دمشق جيشا سار نحو حوشبة لمقاتلة أفتسكين الذي أمده أبو المعالي بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه لا قبل له بمنازاته عاد إلى بلعبك . وسار أفتسكين إلى حمص ، فلتقاء أبو المعالي بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار في ذلك الحين بدمشق جماعة برعامة ابن الماورد وحماربوا ولاية المعز واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتسكين بعثوا إليه بمحمص يدعونه ويعمدونه باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جنود المعز وعونا له على إخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها^(١) . ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم في المذهب الديني من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين في بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتسكين حتى وصل بثنية العقاب في أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ^(٢) .

دخل أفتسكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلي . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتسكين بلعبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فانهزوا فرصة دخوله بها ، فنهبوا وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتسكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطلبوا إليهم الرحيل في مقابل مال يؤدونه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتسكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأموال لتفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر إمبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتسكين في جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩ .

(٢) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ .

الإمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحبه عن دمشق قوى نفوذ أفتككين
فيها ودعا للطائع العباسي^(١) .

وفي ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد
الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة
لهم . فقد استندعاهم أفتككين من الأحساء لمعاونته على قتال الفاطميين . فقدموا
دمشق في سنة ٢٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتككين الذين شنت المعز
شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على إخراج الفاطميين من هذه
البلاد .

ترك القرامطة وأفتككين دمشق إلى الرملة فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم
واصل أفتككين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا ،
وكان بها ظالم بن موهوب العقيلي وابن الشيخ واليها من قبل المعز . فقاتلهم
ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى
القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتككين من جنود
المعز فقطع أيدي القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا
وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتككين في الشام واستعصى أمرهما على
الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر ،
وهو ما سنفصله في الباب الخامس .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٩ .

صدر جوهر غارات القرامطة عن مصر:

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التي أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقرئ أن السبب الذي حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصناً منيعاً ضد هجمات القرامطة^(١) . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين في الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن قلاح وأسرهم وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حبان الذي ولاه عليها جوهر في شوال سنة ٣٦٠ هـ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ^(٢) ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف^(٣) ونهب ما كان يملك من الخيل والإبل ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها في المحرم سنة ٣٦١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ في برزخ السويس ، واعترفت بإسماطانه مدينة تنيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات في جامع عمرو لخص الناس

(١) الخطط ج ١ ص ٣٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٤ ص ٤٣٢

(٣) في ديوان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو فإن المتنبي هو الذي سهل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده

على مصيان جوهر ، ثم أمعن الحسن السير في داخل البلاد وعسكر برجاله في
هين شمس (هليوبوليس) وهند القاهرة (١) .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله .
فحفر خندقاً أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الإخشيد ، وبني قنطرة
على الخليج ووزع السلاح على المناربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجلاً
من عنده إلى معسكر القرامطة فظاهروا بالسخط على القاطنين والرغبة في
التخلص من حكمهم ، وما زالوا يبدون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت
الفوضى في جيوشهم ودب الانقسام في صفوفهم (٢) .

وقد بدأ القتال مع القرامطة في أوائل ربيع الأول عند باب القاهرة ،
وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت
الحرب بينهما سجالاً حتى حاول زعيم القرامطة وفائد جيوشهم الحسن بن أحمد
الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت
الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستمرت نار الحرب التي
انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم (٣) .

وقد أظهر جوهر في هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل
على القرامطة حملة صادقة فردم على أعقابهم مدحورين مهزومين بعد أن
كادت البلاد تقع في أيديهم وتعرض لسكثير من الويلات والمحن . وليس
أدل على مبلغ استيلاء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانه في البلاد عقب
رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار

(١) G. wiet ; Precis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P.32

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفاء ص ٩٣ .

(٣) أبو الفداء : ج ٢ ص ٩١٧ ، ١١٨ ، المقرئى : اتعاظ الخنفاء

وخمسين خلفة وخمسين سرجاً^(١) . وقد استولى المصريون على مائتي القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال .

ولاشك في أن جوهر أمدن بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المصريين من الدفاع المجيد ؛ فقد رأوا بلادهم مهددة بالفتور ، وأمواهم معرضة للضياع وأرواحهم للهلاك . فصعدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا من مالا العدو من الجند الإخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وفي ذلك يقول ابن القلائسي « ونادى جوهر في الإخشيدية فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم^(٢) ، وكانوا ألفاً وثلثمائة مقاتل ،^(٣) .

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلاقل في البلاد . فرأى جرهر أن الأحوال لا تستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذي قطعه على نفسه بمصافاتهم ، ولم يربداً من منع أذاهم بأقصائهم عن الجمهور .

ولما سمع الممزر وهو ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة مصر ، أرسل جيشاً من القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحرية وعزم على إخضاع مدينة تنييس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها وأسكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وعاد الحسن إل دمشق ليتأهب للقتال من جديد^(٤) .

(١) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٨٦

(٢) وقد أطلق الممزر سراحهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ : المقرئى : انماظ الحنفا ص ٩١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٤) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate p . 109 .

ولما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن مملكته لا يزال معرضاً لخطر
القرمطة ، فإنهم ما فتئوا يمددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لا تترعهم من
الفاطميين ، فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتاباً بهتوانه :

« من عبد الله ووليه وخيرته وصيفه معد أبي تميم المعز الدين الله أمير
المؤمنين رسالة خير النذيرين ونجل على أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد^(١) .

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن
فيه بسنة الأوائل الابتداء بالاعذار والانتها بالإنذار ، كما ذكره أن جديده
أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتقدان مذهبهم . ثم
ندد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستقباه منه في تلك العبارة : « أما أنت
أيها الفادر الخائن الناكث الباين على هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من
دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم
أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دوني أثرك . وإنك مني ليمنظر ،
وفي نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال لينتار لنفسه منها واحد :
إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب في حروبه مع جعفر وجنده
بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردهم أحياء ، وهو ما
لا قبل له به ، وإلا أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص
أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذي بعث به الخليفة الفاطمي
إليه بتلك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالآفاظ ، الخالي من المعاني
وسياتيك جوابي .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطي كان ينوى إعادة الكرة والإغارة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التي حلت به على يد جوهر ، بل ولم يرهبه ما أظهره المعز في كتابه اليه من التباهى بقوته والاستخفاف بمحمد عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال العرب أني هبتها فرمى إذا ما بينهم مطلول
بامصر لأن أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل^(١)

وقد ظهر القرامطة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية في عين شمس ، وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنة عبد الله إلى الوجه البحري على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هنموا القرامطة في عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تفت من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذي حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه^(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمي بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بنو طي من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائي . وكانت هذه القبيلة أقوى العناصر في جيش الحسن القرمطي . وبذلك نجحت سياسته في فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يكفي لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت في أكياس ووضع في أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طي ، وولى

(١) المقرئى : انماظ الحنفاص ١٣٣ — ١٣٤

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 118

ابن الجراح منهزماً ، وتشنت شمل القوة التي بقيت مع الحسن القرمطي ، فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك في رمضان سنة ٣٢٣ هـ ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة في الضعف لوقوع النزاع بينهم ، فارتدوا عن مصر إلى غير رجعة (١) .

الدعوة الفاطمية في مصر :

كانت القيروان أو المهدية لا تصلح حاضرة للدولة الفاطمية ، لبعدها عن الولايات الإسلامية التي كان الفاطميون يقطعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الإسلامية ، فضلاً عما اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فسكر المهدي الفاطمي في غزوها وجعلها حاضرة الدولة الفاطمية بعد أن وطد سلطانه في بلاد المغرب . ولا غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض . فإن امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمي في ثلاثة من الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهي المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل من الشام والحجاز تحت سلطان مصر في ذلك الحين .

غزت جيوش المهدي الفاطمي هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففي سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وأن كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية في مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوهم المون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها : « واني مشغول بكتب زد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي ^(١) » . وما ذكره أبو المحاسن من أن الشيعة في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها : « إذا زال الحجر الأسود ^(٢) فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها ^(٣) » ، وكان لهذه المسكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر ^(٤) . ثم هذه الأبيات التي نظمها ابن مهران عن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، تنقلها عن السكندی :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر (له) خرط القتاد وأي خرط
وأقبل جاملاً حتى تخطى وجاز بحمله حـد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه وناقنونا وكل في البلاد له موطى ^(٥)

ويظهر أن الدعوة للفاطميين في مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومي وإلى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشي استفحال أمر هذه الدعوة . فأخذ في اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولا شك أن الدعوة للبيته العلوي قد صادفت نجاحاً عظيماً في مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويعمل على نشره . ويرجع

(١) المقرئى : اتعاط الخنفا ص ٦٠ - ٦٦

(٢) يقصدون كافورا الذى كان يقول بحكم مصر إذا ذاك

(٣) ج ٢ ص ٤٤٣

(٤) المقرئى : اتعاط الخنفا ص ٦٦

(٥) كتاب الولاة وكتاب الفضاة ص ٣٧٢

ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين في صفوف جندهم ، الذين أوفدوهم لفتح مصر ، دهاة يمهدون لإيهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمي . أضف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتائب بخطهم مذيبة بإحضارهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها للاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ - ٣٥٠ هـ) الخطبة للخليفة الفاطمي وإزالة اسم الخليفة العباسي منها . غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر في نفس الأخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشيء .

على أن إرسال الخليفة العباسي محمد بن رائق الخوري إلى الشام لأخذ مصر وطرد الأخشيد منها قد أحفظ الأخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي إلى عداوة مستعسكة . فأمر الأخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وإقامتها للخليفة الفاطمي .

وقد روى ابن سعيد نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر أن الأخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي وأمر بذكر الخليفة الفاطمي محله . وذكر أن السبب في ذلك هو ما اتصل بالأخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسي ، مما أثر في نفس الأخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمي (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم في هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسي لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي . فإن المؤرخين لم يكفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسي قد

حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسي لما حزن المؤرخون بموافقتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة في الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسي والإخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من المتشيعين في مصر " يعمل على نشر المذهب الفاطمي - كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسي المطيع ولو إلى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الإخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الإخشيد . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته إلى الإخشيد ، فأرسل هذا إليه صداقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الإخشيديين والفاطميين .

هذا ما رواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشك . إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيد ، وهو أحد ولادة الخليفة العباسي ، أن يزوج ابنته من ولي عهد الخليفة الفاطمي الذي كان يضم له العباسيون السكراهمية والبنضاء . ولعل الخليفة العباسي قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيد حين اتصل بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الإخشيد عن المضى في هذا السبيل : ومات هو والخليفة الفاطمي بعد قليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبي يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٢٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن قيام الثورات التي

أذكرى نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبي يزيد — قد استنفدت جهود الخليفين كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه إليها في همد كافور الإخشيدي ، ووصلت إلى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطة دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطة وموظفي دولته للدخول في طاعة الخليفة الفاطمي . وقد أخذت البيعة المعز من معظم رجال الإخشيديين والكافورية وسائر الأولياء والكتّاب (١) .

وما يدل على اهتمام كافور بشتون الأشراف في مصر هذه الحكاية التي نروها عن ابن سعيد (٢) الذي يقول إن كافور كان راكباً في مركبه فسقط سوطه فنأوله إياه أحد الأشراف (٣) . فقبل كافور يده وقال له دعيته إلى نفسي فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي هاية يستشرف لها .

وما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به داحمى يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً ، فسقطت ، فغضب كافور غضباً شديداً ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشفعت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها . فأتضح أنها علوية . فأسف كافور على ما حدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف (٤) .

* * *

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطى في كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ٢

ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

لما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر في بث الدعوة للخليفة الفاطمي خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق في تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يمتشق المذهب السني ، في حين كان الشيعيون أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمي ، كما أمر بأن تضرب السككة باسم الخليفة الفاطمي ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرم على الناس قراءة التسييح ، سبوح باسم ربك ، في صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين ^(١) .

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي تقام في مصر في عهد جوهر في المساجد ، وبخاصة في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذي بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يد داعي الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد في مصر مقصوداً على الأفاضل الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الأول الذي كانت ترمى إليه سياسة الفاطميين في مصر هو جذب الناس إليهم وإدخالهم في حظيرة مذهبهم ، فإنهم لم يألوا جهداً في بث تعاليم هذا المذهب في نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول إلى أغراضهم السياسية .

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفاص ٧٨



جامع عمرو بن العاص

وكان في مصر عندما فتحها الفاطميون مسجدان هما جامع عمرو في مدينة
الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون في
القطائع . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة الفاطميين
الجديدة . لذلك نرى أن تتسكلم عن بث الدعوة الفاطمية في كل من هذه
المساجد الثلاثة ، انزى إلى أى حد نجح الفاطميون في هذا السبيل .

خطب للمعز في جامع عمرو في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (سنة
٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة^(١) . وكان ذكر المعز
في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي حادنا هاهنا في تاريخ مصر^(٢) . فقد
شاد الخطيب في خطبته بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٠

الخارجون من السنين حقه^(١) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنين بصورة أشد عداوة مما كانت عليه في الأزمان السابقة . فأخذ كل حزب في لعن الآخر والخط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت ، وراد في الخطبة العبارة الآتية : اللهم صل على المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين ،^(٢) وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع حمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٦ هـ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو : الله أكبر الله أكبر ، وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلي جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسي وأذن المؤذنون ، حتى على خير العمل ، وهي من العبارات المأثورة عند الشيعة .

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع العسكر ، ومنه إلى جامع عمرو . ويحدثنا المقرئ أنه حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسي قد شاد في خطبته

(١) من خطبة هبة الله بن أحمد التي ألقاها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٧٧ ، وأبو الحسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠ .

جامع احمد بن طولون



بذكر أهل البيت وعدد آثارهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذي لم يقر الخطيب على ذكر اسمه في الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك^(١) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٩١ هـ ، ولم يزد جوهر شيئاً جديداً في الأذان والخطبة في هذا الجامع على ما أدخله عليهما في جامع عمرو وابن طلحة . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً . فقد أمر الخليفة الفاطمي بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي «خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»^(٢) . وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة في مصلى القاهرة التي أنشأها جوهر في رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة في الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربما فقط ، فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتضياً في ذلك أثر علي بن طالب . ولما مات أحد بني عم المعز صلى عليه هذا الخليفة في الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً^(٣) .

ولما وصل المعز إلى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاهم الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون في نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدعونهم في جيوشهم لبث الدعاية باسمهم وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي ، بعد الفتح ، تذاع على يد داعي الدعوة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً في قصره

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ص ٩٠

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣

ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياحة التي انتهجها جوهر في مصر هي نشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . واسننا نشارك في أن جوهر قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيسا هو داعي الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فإن الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيرا ببيت دعوتهم في المساجد الأخرى كجامع عمرو وجامع ابن طولون التي يؤمهما السنون . ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذ المعز ليكون مقرأ لداعي الدعاة .

وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية إنا عشر نقيباً ، كما كان له أبواب يتوهمون عنه في سائر البلاد المصرية ، وبحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه في يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعي ، فيعرضها الداعي بنفسه قبل إلقتها على الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضائه ، ثم يردها الداعي إليهم .

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس في مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان مجلس على كرسى الدعوة في الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلسا خاصا يعرف بمجلس الداعي . وفي هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعي . فإذا ما فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على الحاضرين ساروا إليه لتقبيل يده ، فيصيح على رؤسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة . وكان داعي الدعاة يجمع النجوى^(١) من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سرقة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين دينارا وثلاثي دينار يعطى رقعة مذيقة بإمضاء الخليفة فيها « بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك » ، فيدخرها ويقنن بها .

وكان داعي الدعاة يواظب على الجلوس في القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفرد لال على مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، وللعامه والنازحين إلى

(١) النجوى : الصدقة وهي عبارة عن ثلاثة دراهم وثلاث .

مصر من البلدان الأجنبية مجلساً ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً ، كما كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(١) .

وكان في قصر الخليفة مجموعة عظيمة من السكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقيها للناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بزيادة عدد السكتب في المذهب الشيعي ، حتى كانت مكتبة القصر في القاهرة تنافس غيرها من المسكاتب في العالم الإسلامي^(٢) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين في نشر دعوتهم على الإشادة بمحمد آل البيت ، بل عملوا أيضاً على الخط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم شأن الخلفاء من بني أمية وبني العباس والصحابة الذين لم ينصروا عليه ولم يقولوا بأحقية في الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل على وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد في مصر وفي البلاد التي كانت تحت سلطانها . كما نرى الخطباء في عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيداً أن تكون الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السفين إلى التحول إلى المذهب الشيعي .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر :

كان من سياسة جوهر أن يحمل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة . ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعي أن تؤول أكثر مناصب

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩٣١

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٤٦

الدولة إلى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية . وكما حدث ذلك في الدولة العباسية ، فقد كانت المناصب الهامة في الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة في إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر في تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السني سواء كان ذلك من الوجهة الديقية أو المدنية ، ناظرا إلى معتنقي هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر يتوب عن الخليفة الموحدي في إدارة شئون هذه البلاد . وكان في سياسته شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكي يستطیعوا الإلمام بالنظم الإدارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية في عهد الإخشيديين . ويرضخ لنا المقرئ في هذه السياسة بقوله ، إن جوهر لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربا شريكا لمن فيه ، (١) .

وقد رأى جوهر أن ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت إليهم إدارة أمور الدولة ، فتمتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام في البلاد . وقد نجح جوهر في سياسته ، بحاجا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها في أيدي الشيعة في سنة ٣٧٩ هـ أي بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق في أيدي السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفي الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعي ، مذهب الدولة الحاكمة . وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة في تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعي في مصر بين الموظفين السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة في الوصول إلى المناصب العالية في الدولة ، وحذا حذوهم في ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

(١) المقرئ : انماظ الحنفيا ص ٧٨

وفي أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب في مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة — بعد أن فتح العرب مصر — في مدينة الفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا في القاهرة^(١) . وقد ذكر ابن دقماق^(٢) أن صاحب الشرطة قد توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر مصر . فأُسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة ابن إبراهيم وشبل الممرضى^(٣) . وقد صرف الممر بنى عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدوها أربعاً وستين سنة ، وأسندها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسين في جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه في الجامع الأزهر في سنة ٣٧٩ هـ^(٤) . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المغاربة الشيعة .

وكانت أهم الأعمال الإدارية التي تقلدها الشيعة هي جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاة ، والحسبة .

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التي انتابت البلاد . فقد أنشأ مخزناً عاماً للحبوب عهد برقاته إلى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج في مصر حين فتحها جوهر ، هلى بن يحيى بن العرمزم . فأقره جوهر في منصبه . ولم يكبد بمضى شهر على ذلك حتى أشرك

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) ج ٤ ص ١١ .

(٣) المقرئى : أتماظ الخنفا ص ٩٥

(٤) الخطاط ج ٢ ص ٩٩

معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعا للسياسة التي سار عليها جوهر من إسناد المناصب العالية للمتشيعين من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفي الخراج لم يلبثوا أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرفا ابن العرم وم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلتا جباية الخراج قسمين : أحدهما في يد علي بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري .

وقد ذكر المقرئ (١) أن جوهر راجي خراج مصر في السنة الأولى من ولايته . . . و ٤٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا في أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمرها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة سبع سنوات (٣٥١ — ٣٦٠ هـ) . ولم تنته المجاعة إلا بعد شهر أكتوبر سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أي في أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها .

وقد عهد الممنون إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد . كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي كانت تفرض على كل منها ، فوضعا نظاما دقيقا لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيت بدراسة الشكايات التي كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب . وسلمت في تنفيذ النظام الجديد ، سبيل الحزم ، فحمت دافعي الضرائب من اشتطاط عمال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة أن زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر أنه قد بلغ ما كان يستخرج من الفسطاط في يوم واحد .

(١) الخطوط ج ١ ص ٩٩

مقدار يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار، وأنه قد استخرج من تليس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، إذ لو كان المتوسط ١٩٠.٠٠٠ دينار في اليوم لبلغ في السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير^(١) . وهذا شيء كثير لم تبلغه جباية مصر في عهد الفاطميين . والذي يغلب على الظن أن هذه الآلاف إنما هي دراهم لا دنانير .

وكان يتقلد منصب الوزارة ، هند فتح مصر هلى يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذى تولى هذا المنصب مدة طويلة في عهد العباسيين والإخشيديين . وكان سنياً غالباً . وقد أبى جوهر فى بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال : ما كان وزير خليفة^(٢) ، إلا أنه قد أقره فى منصبه ، متمشياً فى ذلك مع سياسته العامة فى هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر فى داره ويلزمه فى غدوانه وروحانه ويراقبه فى حركاته وسكناته^(٣) . ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير إلى حد كبير . ويحدثنا ياقوت أن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء فى دست الوزارة بعد وصول المعز إلى مصر^(٤) .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز إلى مصر أبى أن يستقبله فى الإسكندرية

(١) ابن ميسر ص ٤٦

(٢) المقرئى : اتعاظ الحناص ص ٧٠ ، ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٣) المقرئى : اتعاظ الحناص ص ٨٥

(٤) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ٤١٢

فرأى كبار السنيين في ذلك إحراجا لمركزهم، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدّة والعنف . ومن ثم طلبوا إلى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه . فأذن جعفر لهم ، وخرج لاستقبال المعز في الاسكندرية .

ولسنا نشك في أن المعز قد اتصل بمسامحه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله وأسرّها في نفسه . وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات وأحج الشيخ ؟ ، فقال : نعم . فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟ ، ولما رأى جعفر بذكائه ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجا ، والإيقاع به ، أجابه على الفور : « شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد ، السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته » . وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة ، فاعتذر عن قبوله . فطلب إليه المعز البقاء في مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقربة منه لاستشارته في الأمور الهامة التي تعرض له .

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كاس وعسلوج بن الحسين . وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية والمدنية ، كما قلدهما في ١٤ المحرم سنة ٣٠٣ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار^(١) والجواري^(٢) والأحباس^(٣) والمواريث والشرحاتين^(٤) . ولا شك في أن إسناد هذه الأعمال

(١) الأعشار : فرضها من بن الخطاب بأدى الأمر على التجار غير المسلمين .
 (٢) الجواري : هي عبارة عن اختيار الأحرار من كل شيء ، سواء من المملوكات أو الشاة .
 (٣) الأحباس : هي كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ، ويصرف ما يتحصل من أموالها ، حسبما أراده الواقف .
 (٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٠

الإدارية الكبرى لإيهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التي كان يتمتع بها جوه من قبل. على أن ابن كاس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وهول عليه في محاسبة المال. فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده. وتوثقت أواصر الصداقة بينهما، ولا سيما عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كاس.

ولم تلبث حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه في عهد المعز، فقد تولى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) سنة كاملة (١). كما تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن هلى بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه. وفي ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفي هـ. هذا الوزير سنة ٣٩١ هـ (٢) بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين.

كان قاضى القضاة في مصر، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوه، أبو الطاهر، وهو من قضاة المصريين السنيين، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ. فرأى جوه أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة محله قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم. فأقره في منصبه اغرض سياسى لحسب، وعمل في الوقت نفسه على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد.

ولما وصل المعز إلى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكباً حتى قرب منه المعز

(١) المقرئى : الخطاط ج ٢ ص ٨٤

(٢) ابن خلصان : ج ٢ ١٣٩

فترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فلغت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجاجه عن الرجل الذي خالف الناس كلمهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس وللأقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) (١) .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جرياً على نفس السياسة التى اتبعها جده منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيداً أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكائه وحضور بديته . فقد ذكر المقرئ أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » فأجابه على الفور : « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه . » فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمكتفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبي الطاهر قد اضمحل وألزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى (٢) . بل زاد على ذلك فاشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٣) وأستد إليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . وما لبثت سلطنته أن قويت حتى أصبح ينتظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية (٤) .

وفى سنة ٣٦٣ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة

(١) الكندى ص ٣٨٧

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩٠ نقلا عن

المحقق السكيري للمقرئى بليدين .

(٣) الكندى ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر ص ٤٤ ، المقرئى : تعاضد الخلفاء ص ٩٢

النعمان المغربي ، فقامم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء في جامع عمرو ، وأبو الطاهر في الجامع الأزهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر أشيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه عما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة : ما بقي إلا أن يقدروه^(١) ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع المتبق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقادون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ . فقد تقلد الحسين بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ وأسندت مقاليد الدعوة لقاضي القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه : قاضي القضاة وداعي الدعاة .



كان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ . وقد أثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال علي بن أبي طالب » . وذكر المقرئ^(٢) أن الصيارفة قد شغبوا عند ما علموا عزم جوهر على حرق رحبتهم ، ولكنه عدل عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفي المحتسب المغربي تولى الحسبة سليمان ابن هشيرة الذي حدث هذا الشغب في ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب

(١) السكندی : ص ٨٥

(٢) المقرئ : انماظ الحفنا ص ٨٧

واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين ، ولاخرو فقد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان إليه الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لما دار خاصة تعامير فيها (١) . فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجمهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فإن وجد فيها نقصاً أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم كساهل معهم ، فكان يلزم من وجد فى ميزانه خللاً أو فى صنجه نقصاً بإصلاحه . وقد ظلت هذا الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية (٢) .

وكان للمحتسب نواب ينوبون عنه فى القيام بهذه الأعمال فى مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويباشرون بحال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله ، ويأمرون السقائين بتغطية قريهم ومراعاة حبارها . ويمنعون معلمى السكتاتيب من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويحذرون معلمى السباحة من التفرير بالاصفار .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جماعى عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرها ، حتى كان لواماً على رجال الشرطة القيام بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية : ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ . ابن خلدون : مقدمة ص

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدة ، وما كان منهم من نهب بيوت الأهلين وإجلائهم عنها . إلا أن جوهر أقد وضع بحسن سياسته حدا لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك في أن تنكيل جوهر بهؤلاء المشاغبيين والضرب على أيديهم كان مظهراً من مظاهر سياسته الحكيمة ، وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التي كان يقوم بها الأهلون دفاعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهر أقد وضع أساساً صالحاً للسياسة التي جرى عليها الفاطميون في مصر ، فقد أخذ بالشدة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الأولى في سنة ٣٦٣ هـ حيث احتلوا دور المصريين في عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر في أحوالهم .^(١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التي طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم ببعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئاً ، اللهم إلا في الاحتفالات الدفينة ، كاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنه - بكر بلاه .^(٢)

(١) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٩٦

(٢) المقرئى : نفس المصدر ص ٨٧ - ٩٤ ابن ميسر ص ٤٥

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أهم ما يرمى إليه ولاية المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية التي فتحوها، أن يؤسسوا قاعدة للمسلمين تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم جرائنها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علي العباسي فأسس هو وأبو حنون مدينة المسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر بنى مدينة القاهرة .

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (٥٢٠ = ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الاسكندر المقدوني (٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمرو بن الخطاب رضي الله عنه . فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إني لأحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلي حين أقدم اليكم قدمت . وأشار عليه بافتتاح مدينة أخرى غير الإسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ،

ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الإشراف على قسمي الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذ عمرو حاضرة لولايتيه .

تقع الفسطاط في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابلون ، والذي لا يبعد كثيرا عن متف عاصمة مصر القديمة ، وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابلون^(١) .

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم : لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه^(٢) فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمر بإبقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوا عمرا عن المسكان الذي ينزلون فيه فقال : « الفسطاط » إشارة إلى فسطاطه الذي تركه لتبيض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « الفسطاط »^(٣) .

شرع عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابلون في تأسيس مدينة الفسطاط ، فاخطت أول جامع بني في مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم^(٤) ثم اختطت القبائل العربية دورها

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل في تسمية الفسطاط أقوال

أخرى ليس هنا مجال بحثها .

Lane—Poole : The Story of Cairo, P 24

(٤)

بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت الفسطاط وبُنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية^(١) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن علي العباسي ولاية مصر ، رأى أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره . فأسس مدينة العسكر سنة ١٢٣ هـ (٧٥٠ م) في الفضاء الواقع في الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط ، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم العسكر ، وكانت بالنسبة إلى الفسطاط أشبه بقرساي بالنسبة إلى باريس^(٢) . وكان موضعها يعرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذي نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب^(٣) عقب الفتح الإسلامي . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفي ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ، وهي تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر الذي بنى فوقه جامع ابن طولون .

(١) ظلت الفسطاط مركزا للحركة التجارية عامرة بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عمرو Amalaric ملك بيت المقدس في سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م) فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد الدفاع عنها : لأن المدينة لم تكن على عهد الأول من القوة ، أضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر بإحراقها وحرقها . ويقول المقرئى : « دويك شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فبرقت فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار بمنظراً موهولاً . فاستمرت النار تأني على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً .. ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيجان (قلل) مصر » . ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (المخطوط : ج ١ ص ٣٣٨ —

(٣٣٩)

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 65

(٢)

(٣) بنى يشكر ، بنى روييل ، بنى الأزرق (المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٣٠٤)

وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لا يكون أحد أبعد إليه من الآخر ^(١) . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الإمارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثر فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة (١٣٢ - ٢٥٤ هـ) ^(٢) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيراً منذ بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تكن بالأمس ^(٣) .

رأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده ، فسار على سنة عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط ، وصالح بن علي العباسي مؤسس العسكر ، في تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختار في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمال الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالعسكر لتأسيس الحاضرة

(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 91

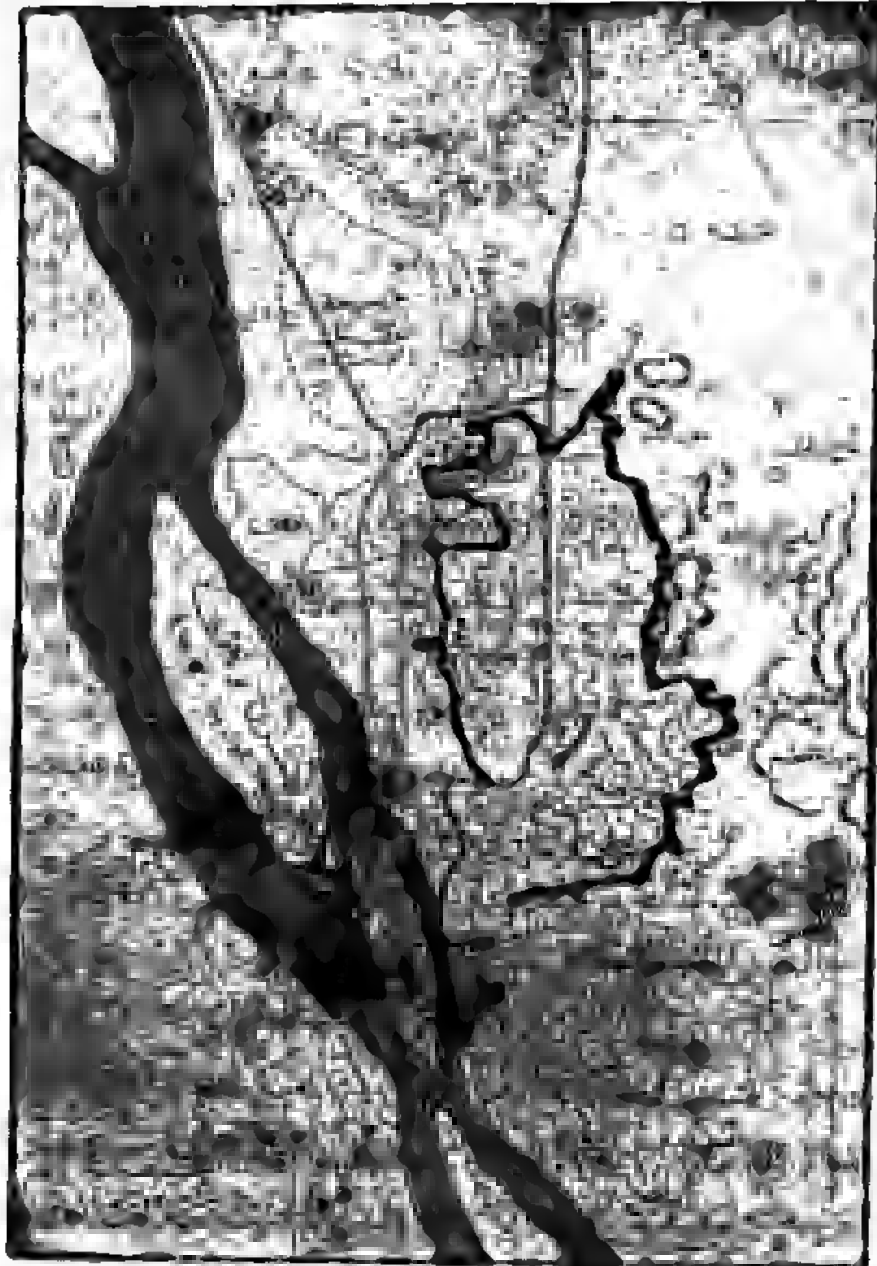
(٢) ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في العسكر ، حتى بنى جوهر الصقلي قائد المعز ، مدينة القاهرة .

(٣) تخربت مدينة العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك الحين . فإن بدر الجلال لما حضر إلى مصر وأخذ في تعمير القاهرة من جديد نقل إليها ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق حامراً من العسكر سوى جبل العسكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون .

الجديدة التي سميت (القطائع) . ويقول المقرئزي^(١) إن مدينة القطائع كانت
تتمدد من قبة الهواء التي بنيت على أطرافها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ،
ومن الرملة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وقد قدرت
مساحتها بميل في ميل^(٢) .

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة داراً يقيم فيها تحيط بها حديقة
غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة ،
وجعل فيما بين المسجد والقصر ميदानاً فسيحاً كان يلعب فيه ابن طولون وجنده
بالصوالجة^(٣) ، وقد بلغ من الاتساع مبلغاً عظيماً حتى سمي القصر كله بالميدان .
ثم اختط كبار رجال الدولة ابن طولون وقواده وغلماؤه دورهم حول ذلك
الميدان ، واتخذت كل طائفة منهم قطيعة^(٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة
وكذلك الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى
باسم الطائفة التي تسكنها ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . ثم أخذ الناس في
البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى
اقصمت أبنيتها بانفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجعلها
وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه لجعله كله
يستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر^(٥) .

-
- (١) الخطاط ج ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢ .
(٢) ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذي قدر هذه المساحة هو ابن سعيد
الاندلسي الذي زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .
والميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .
(٣) المقرئزي : الخطاط ج ١ ص ٣١٦ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة
عند الإنجليز والفرنسيين باسم بولو « Polo » .
(٤) القطيعة : جزء من الأرض .
(٥) المقرئزي : الخطاط ج ١ ص ٣١٦ .



ولما توفي خمارويه (سنة ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية في الضعف والانحلال . فبعث الخليفة الممكتنى القائد العباسى المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فهزم الأسطول المصرى وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسية (١) ، حيث قتله عماء شيبان وعدى ، فلم يرض الجند عن عملهما ، ورفضوا لإقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ هـ و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين (٢) .

وهكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فرادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقلى قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الإخشيدية .

دخل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (١٧ يولية سنة ٩٦٩ م) وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها . وفى تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز (٣) وقد اختطت كل قبيلة من

(١) العباسية : بليدة أول ما يلقى الفاصد لمصر من الشام .

(٢) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ٣٢٢ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 118.

Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44

الهدبر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر^(١) .

أسس جوهر مدينة القاهرة لتسكون مقرراً للملك الفاطميين ومركزاً لنشر دھوتهم الدينية ، ويتخذها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين بدأوا يهددون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعة لمصر إذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بداً من انقاء شرم ورد غاراتهم^(٢) .

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ القسطنطين أو العسكر عاصمة له وتقكيره في إنشاء عاصمة جديدة أتى بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف المنصور عند ما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمامه عواصم إسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة له . ولكنه نظر إلى المدينة فوجدتها لا تصاح لأن تكون حاضرة لخلافته ، فقد تغير الزمن وأصبح البون شاسعاً بين زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . وأتت دمشق حافلة بذكرىات الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هوأها مع على وأولاده . أما الهاشمية فكانت قريبة من الكوفة ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما بعد واقعة الراوندية . فلم يكن بد إذأ من أن يتجه المنصور شرقاً نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم في عهد بني ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على أكتافهم^(٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤١٦ .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦١ .

G. Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, (٣)
p.p.1—6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن آئيننا لا يصلح لأن تسكون حاضرة لدولته لقربها من بلاد اليونان الغربية موطن الديموقراطية وشغب مجلس السناتو ، لحول وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردي القديم ، ورأى أن موقع بيزنطة هو المكان الذي يصلح لأن يكون حاضرة للملك ، لأنه بنى بتحقيق أغراضه السياسية والدينية وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة راقودة^(١) لبناء الاسكندرية لتسكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية ، وذلك لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا إلى أن اليونان كانت أمة بحرية ، ومن ثم كان من الضروري أن تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دول أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفي بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسمّاها القاهرة^(٢) . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق^(٣) إنها سميت بذلك لأن أساسها شق^(٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا يديار مصر وهو كوكب

(١) راقودة أو راقوتيس : كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالي .
المقريزي : الخطوط ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) المقريزي : انماط الحنفا ص ٧٣ ، الخطوط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٥ ، ابن دقاق ص ٣٥ .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

(٤) سفر

يقال له : القاهرة ، . ويقول المقرئى : : إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نساجم أبداً ، فاختاروا طالماً لوضع الأساس ، وطالماً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قرائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال ، إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصالح المنجمون القاهرة فى الطالع . فضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريح كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسمرها القاهرة ، (١) .

ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المعز — على ما ذكره ابن القلانسى (٢) — كان مغرماً بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة . على أنه يظن لنا أن هذه الحكاية تسكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقرئى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية فى عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة : لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذاً من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر : ولتدخلان فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا ، (٣)

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقرئى :

الخطط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندى ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية^(١) شمال الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية لم تتجاوز شارع الخليج^(٢) . وعلى ذلك فهي تحد شمالا بباب النهر ، وجنوبا بباب زويلة^(٣) ، وشرقا بباب البرقية والباب المحروق^(٤) (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السمادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية — على ما رواه المقرئى — أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسنية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق^(٥) . ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها ، وقال : يا جوهر فانتك عمارتها ها هنا^(٦) يريد المقس^(٧) .

(١) أطلق على المدينة التي بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة إلى الخليفة المعز (ابن خلسكان ج ١ ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها .

Lane Poole : The Story of Cairo p. 123, 127

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte (٢)

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التي أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع هذين البابين هو غير الموضع الذي كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٢٧٣

Lane—Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقرئى : أتعاظ الخنفا ص ٧٤

(٧) المقس : ضيعة كانت تعرف بأمر دفين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والشار فيها ، ثم قلبت فقبل المقس ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائى السلع فى الأسواق . المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ١٣١ .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير^(١) من اللبن ، يقدر حجم اللبنة منه ذراع في ثلثي ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطاط إلى تسكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وإلى الجنوب الشرقي من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق^(٢) بعد أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر بهارتها ، وبنى بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق^(٣) .

وفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز ، في ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرق سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقي . وكان يسمى هذا القصر أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر جوهرًا .

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى في سنة ٣٥٨ هـ في عهد القائد جوهر ، والثانية في سنة ٤٨٠ هـ في خلافة المستنصر ، والثالثة في سنة ٥٩٦ هـ في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقرئ الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) على يد وزيره بدر الجمالي الذي هدم هذا السور وبنى بالأحجار . أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٢٣ .

Lane—pools : Egypt in the Middle Ages P. 118 (٧)

(٢) المقرئ : الخطاط ج ١ ص ١٠٩

ببنائه حين سيره الفتح مصر ، ووضع له رسمه^(١) ، وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر في أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة^(٢) .

وكان في ذلك القصر أبواب كثيرة ، فنخص بالذكر منها : باب الذهب وقملوه منظره يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلي الآن . وقد دفن المماليك في هذه المقبرة جثث آبائهم المماليك والقائم والمصور التي أحضرها معه في توابعه من بلاد المغرب .

وقد ظلت هذه المقبرة مدفناً للخلفاء وأرلادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الدين الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية^(٣) وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع ، التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالى الوقود^(٤) . فجلس بمنظره هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر ، وكان يصل فيه الخليفة صلاة الجمعة . ويجوار رحبة باب العيد دار

(١) المقرئى ج ١ ص ٣٨٤

(٢) G . Migeon : Art Musulman, I. p . 42

(٣) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ٤٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التي تسبق أول ومنتهى شهر رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعالم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بـرمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين تربة الزعفران وباب الزهومة^(١) . وبين هذا الباب والجامع ، كانت خزائن القصر ومن بينها خزائن المكتب والمثروبوات والأسلحة والسكس والفرش ، وكانت تقع في الجهة الشرقية من القاهرة المعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، وأثنه بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الملوك والخلفاء^(٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى وقد بنى في موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين^(٣) ، وبجوار الميدان والبستان الكافورى^(٤) ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندي ، أطلق عليه فيما بعد بين القصرين . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا^(٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز في هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلاثمائة وأربعون فدانا : منها نحو سبعين فدانا في فيها القصر الكبير ، ونجمة

(١) سمي بباب الزهومة : لأنه كانت تشتم منه رائحة اللحم .

(٢) المقرئى : اتعاط الخنفا ص ٧٤

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٤) البستان الكافورى هو : الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .

G. Migeon : Art Musulman, t. I. p. 41

(٥) الخطاط ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا للبلستان السكافورى ، ومثلها الميادين ، فيسكون الباقي مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين مقرا ، وفى سنة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبنىت الأبواب من حجر ، (١) .

ولما اخطت القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا ذويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول (٢) أن بابى ذويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي « باب القوس » . وقد مر منه الممن هند قدومه من بلاد المغرب ، فسكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه .

ويقول القلقشندى (٣) إن جوهرأ سمي بابى ذويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة ذويلة ، إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب ذويلة الكبير الذى لا يزال باقيا إلى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابيه الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى (٤) . ويقول مسيو فيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث

Margolionth : Cairo, Jerusalem and Damascus

إن السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا

Lane—Poole : The story of Cairo, p. 129

(٢)

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤) المقرئى : انماط الحنفى ص ٣٨١

الجمالى تجمع بين سلامة الذوق ودقة البناء . وهى من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها ، (١) .

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٢) . وكان سكانها جميعاً من الشيعة . ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المباني الفخمة والقصور الشامخة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت فيها الحدائق الغناء ، وبُنيت بها الدور والحمامات والخوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختلطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

بناء الجامع الأزهر:

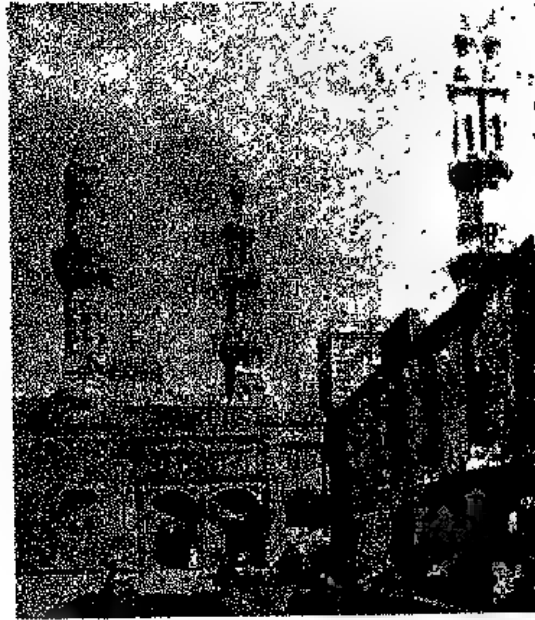
دخل الإسلام مصر فى سنة ٦٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) ، فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصونا : فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجنود . وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر .

ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية إلى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte (١)
p. 36—37.

أنظر أيضاً :

Mme R. L. Devonshire : Quatre-Vingts Mosquées du Caire, p. 21.
Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 125 (٢)



الجامع الأزهر

وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر ، الذي ذاعت شهرته وأصبح مركزاً لدراسة الدين الإسلامي ، ليس في مصر فحسب ، بل في العالم الإسلامي أجمع .

كان جامع عمرو وأقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة القسطنطينية . وكان أول ما توجه إليه نظره أن يبني للمسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جرياً على السياسة التي سار عليها المسلمون فقد كانوا يقيمون في عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعته المشهور سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق ، وتاج الجوامع ، والمسجد الجامع^(١) . ويقع شمالى حصن بابليون الذي كانت تقيم فيه حامية الروم

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ٥٩

وقت الفتح الاسلامى . وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) وإلى مصر من قبل معاوية ، فزخرف سقفه وجدرانه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولى عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، هدم هذا الجامع وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته^(١) ، فظل المسجد عامراً يؤمه الناس للصلاة فى كل يوم . ويقول ستانلى لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرسون على إقامة صلاة الجمعة باليقينة به إلى اليوم^(٢) . ولم يبق من البناء الأصيل شئ الآن ، فقد بناء عمرو باللبن . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولاً باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر^(٣) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين أسس صالح بن على مدينة العسكر . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فقدا من المسجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الإمارة وسط هذه المدينة . ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر وإلى مصر من قبل المأمون وظل قائماً فى مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل أنقاضها أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى^(٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة الشمالية من العسكر . ويقال أن الذى دعاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جنود أحمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب إلى

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦

(٢) Lanc—Poole : The Story of Cairo p. 44

(٣) Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du Cairo, p. 10

(٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدد المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباي اختفى في ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا من الله عليه بالخلاص . وقد وفي بنذره فاهتم بعماراته وأعادته إلى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه^(١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأول^(٢) فقد سقطت مباني مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان السكاتب قائد الخليفة العباسي المسكتفي إلى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب في بقاء هذا الجامع حتى اليوم إلى استعمال الجير والرماح والأجر الأحمر القوي النار في بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد في البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي^(٣) » .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة ، في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، لتسكون أشبه بمدينة حصينة وممثلة له ولجندته وأنصاره من المغاربة ولتتبعه شر القرامطة . وكان المذهب السني في ذلك الوقت منتشر في مصر ، ولم ير جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . فخص بها بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » التي كان يذكرها الفاطميون في الخطبة ، حتى لا يثير جوهر - فريضة المعريين .

لذلك عول جوهر على تلافى الشر قبل وقوده . فبنى مسجدا يتلقى فيه

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٢٢١ - ١٢٤

(٢) ابن دقاق : نفس الجزء والصفحة

(٣) المعطوط ج ٢ ص ٢٦٧

الناس عقائد المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء الجامع الأزهر في يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ و ٢٢ يونية سنة ٩٧٢ م)^(١) .

كان الأزهر أول مسجد شيد في مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع في العالم الإسلامي ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه (٢) .

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمي بالأزهر . وقال آخرون إنعاسي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظن لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات ومناطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون في صفوف متعاضدة . وفي سنة ١٦٧٧ ع بنى الأمير عبد الرحمن كيتخدا مقصورة ثانية بها خمسون

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، الفلشندي : ج ٣ ص ٣٦٤ .

Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٢) Mme R. T. Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du
Caire, p. 11. G Migeon : Art Musulman, tome I, p. 41

عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد ، الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عمودا . وترفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما صحن الجامع ، فهو مكان متسع غير مسقف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر . ويقومون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع ببوائك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل (١) .

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محرابا بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة ، أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، واسكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ووظيفته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان الأزهر . وكان

(١) G. Wiet : Précis d' Histoire Musulmane de L'Egypte, p.42

المليقاتى يعرف الأوقات بالنظر فى المذولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم بأحد
جدران معن الأزهر .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل لإقامة
الصلاة . وقد سار على هذه السنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد المعز ، وقد
ذكر المقرئ أن الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حوّل الأزهر من مسجد
تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق
على طلاب العلم فيه وبنى لهم المساكن للإقامة فيها^(١) .

(١) الخطوط ج ١ ص ٢٧٣

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

قدوم المعز إلى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلسكان (٢) إن جوهر أطلب ما كتب إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولي شئونها ، بعد أن رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرهما . فلما وجد المعز أن دعائم ملكه قد توطدت في الشرق ، هزم على الرحيل إلى مصر .

خرج المعز من المنصورة يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سرذانية وأقام بها مدة حتى اجتمع إليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ وسبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل إفريقية بطاعته والائتمار بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل في طريقه حتى وصل إلى برقة ومنها إلى مصر .

وقد دخل المعز الأسكندرية ، بمطجواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ و ١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، في جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده

(١) ابن خلسكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٨

وأخوته وأعمامه ، ومعه جيش آباءه المهدي والقائم والمنصور^(١) . فاستقبله
أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أمير الطاهر قاضي مصر ، فجلس الممنون عند المنارة
وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها ، أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا
للمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يحتم عمره بالأعمال الصالحة ،
وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم وأطال في الوعظ
حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضي وبعض من كان معه ، ثم
انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه^(٢) .

رحل الممنون من الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ ووصل إلى
الجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه
وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الغرات .
وقد أقام الممنون بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها في العبور بامتعتهم إلى
ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ عبر
الممنون النيل ودخل القاهرة دون أن يمر على القسطنطين ، وكان الأهليون قد
زينوها له بالزيينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل
القاهرة للقائه^(٣) .

ولما وصل الممنون إلى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، دخل
القصر الذي بناه له جوهر ، ونحر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين في إحدى
ردهانه ، وصلى خلفه من كان معه ، وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين
دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة^(٤) ، وغدت القاهرة - بدل القبروان -

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p. 33 (١)

G. Wiet : Art Musulman, t. I. p. 41

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٢

G. Migeon : Art Musulman, t. p. 41

(٣)

(٤) المقرئ : أتماظ الحنفيا ص ٨٩

مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهديّة إلى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) ^(١) . فإن بلسكين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٣ هـ . وحذا حذوه في ذلك الحاديون في سنة ٣٩٨ هـ . وفي عهد المستنصر ثم استقلال أمراء شمال إفريقية (سنة ٤٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائياً عن سلطان الفاطميين ^(٢) .

أقام مع المعز في القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج إليه الملوك من مال وعين ^(٣) وجوهر وحلى وفرش وأران وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم في ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز إلى الجزيرة تركه ولم يحمل معه شيئاً من أثاث القصر إلا ما كان عليه من الثياب ، ونزل في داره بالقاهرة ^(٤) . وفي اليوم التالي لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضااتها وعلماؤها وجوهرها لتمنيته والاحتفال بوصوله .

جلس المعز في قصره في الخامس عشر من شهر رمضان على السرير الذهب الذي صنعه له جوهر في الإيوان الجديد . ثم أذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوماً بعد قوم ^(٥) . ثم قدم جوهر هديته إلى مولاه المعز . وكانت — على ما ذكره المقرئى نقلاً عن ابن زولاق — مائة وخمسين فرساً مرسجة ملجمة ، وكان من تملك السروج والأجهم ، ما هر موشى بالذهب

(١) Lane—Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

(٢) Lane—Poole : op. Cit, p. 39

(٣) العين : مشترك لفظي يطلق على أشياء مختلفة . وأهل المقصود بها هنا النقد وكذا الدنانير المصروفة والغير المصروفة .

(٤) ابن تليكان ج ١ ص ١٢٠

(٥) المقرئى : أعاظ الخنفا ص ٩٠ — ٩١

وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بخاتي^(١) بالديباج^(٢) والمناطق^(٣) والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحريز ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا^(٤) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخروقة فيها جواهر ، وشاسية مرصعة في خلاص ، وتسعمائة سفط ، وتخت^(٥) ، فيها الطرف وكل ما أعده جواهر لمولاه الممنون من ذخائر مصر^(٦) .

ولما فرغ جواهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن هبيرة الحسيني وقدم هديته إلى الممنون وهي أحد عشر سفطاً من متاع تونة^(٧) وتنيس^(٨) ودمياط^(٩) ،

(١) البخت : نوع من الإبل .

(٢) الديباج : ثوب سدهاء ولحمته إبرسيم (حريز) ويقال هو معرب . ثم كثر حتى اشتقت العرب منه .

(٣) المناطق : جمع منطاق وهو ما يشد به الوسط .

(٤) النجيب : هو السكريم (الأصيل) من الجبل .

(٥) تخت : وعاء .

(٦) المقرئ : الخطوط ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : أتعاط الحنفيا ص ٩١ ،

G. Migeon : Art Musulman I. p. 42

(٧) تونة : جزيرة قريبة تنيس ودمياط .

(٨) تنيس : جزيرة بين الفرما ودمياط .

(٩) اشتهرت هذه المدن في ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كان لها شهرة عالمية في ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهل دمياط بصناعة الأقمشة القلونية التي أخذت صناعتهما عن بلاد اليونان ، وهي نوع من القماش ذو ألوان براقه تتلألأ إذا انكسرت هلمها أشعة الشمس ؛ وقد ذكر ياقوت همد كلامه على دمياط وتنيس أن حاكاة الثياب الرفيعة =

وخيل وبغال . وقال : كنت أشتبه أن يلبس منها المميز لدين الله ثوباً أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فاعمل للخليفة قط مثلاً ، (١) .

وبعد أن تقبل المميز ما قدم إليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة المهنتين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الآلاف .

وفي عيد الفطر ، ركب المميز إلى مصلى القاهرة الذي بناه جوهر ، فأقبل عليه في موكب ، وجلس خلفه من الجمة النبي أبو جعفر مسلم العلوي وصلى المميز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ في الركعة الأولى أم الكتاب وهل أناك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضي النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ في الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهي صلاة جده علي ابن أبي طالب . وأطال الركوع والسجود في الثانية أيضاً . قال ابن زولاق : قد سبحت خلفه في كل ركعة وسجدة ثيلاً وثلاثين تسبيحة . وجهر المميز ببسم الله الرحمن الرحيم ، في كل سورة . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ في خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف في عساكره (٢) . ولما وصل إلى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعائب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المميز على جوهر في ذلك العيد خلعة مذهبة ، وعمامة وقائده

٣٣٣ هما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرافاً في قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(١) المقرئى : انماط الحنفى ص ٩١

(٢) المقرئى : انماط الحنفى ص ١٩

سببها كما قدم اليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منسح المعز جوهرأ هذه الهدية إعجاباً بما أحياه من النجاح في فتوحه وتقديراً لما قدمه إليه جوهرأ من تلك الهدية الثمينة التي أنينا على وصفها .

ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ، ركب إلى المقيس ، وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوده ، وخلف عليه جوهرأ والقاضي النعمان ، ثم عاد إلى قصره (١) . ومن هنا تدبين أن جوهرأ كان لا يزال يتمتع في ذلك الوقت بشيء من النفوذ الذي كان يتمتع به قبل وصول المعز إلى مصر .

* * *

ظلت مقاليد الأمور في مصر بيد جوهر حتى قدم المعز في سنة ٥٣٦٢ هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جرهر من النفوذ . على أن جوهرأ قد بقي بجانب المعز يدل على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وحصد غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التي كادت تقضي على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز — على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجواري والاحباس

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٩١

والمواريت والشرطتين وغيرها ، وقلدها يعقوب بن كاس وعسلوج ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهرأ يتوارى قليلا قليلا من مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر أفتسكين والحسن ابن أحمد القرمطي واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر في تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء للمعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشئون العامة في مصر .

وهنا نتساءل عن السبب في موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفاتح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب الهامة في تلك البلاد التي تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم من مؤسسي الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه على نفوذهم أن ينتقل إلى هؤلاء ، وإن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فلك عبيد الله المهدي بأبي عبد الله الشيعي بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . على أن جوهرأ — وإن جازاه المعز على فتوحه جزاء سخيا — فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبي مسلم وأبي عبد الله الشيعي .

تثبيت سلطان الفاطميين في سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر أفتسكين والقرامطة في الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز ، والآن نبين كيف تم القضاء على أفتسكين والحسن زعيم القرامطة ، وكيف عادت بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين .

توفي المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز . فكتب إلى أفتسكين يستميله إليه ويعدده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . فرد عليه أفتسكين برد جاف فيه : هذا بلد أخلفته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً ، (١)

وقد استناب العزيز من ذلك الكتاب ، وحقق على أفتسكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتسكين لإخراجه منها عنوة . فوجد العزيز في جوهر رجلاً الساعة الذي يعتمد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وثبيت الفتح الفاطمي بها ، كما اعتمد عليه المعز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتسكين والقرامطة فلما علم القرامطة بذلك وهم في الرملة فروا إلى الأحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتسكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استنار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التي نلقاها عن ابن القلانسي^(١) : « وقد علمتم أنني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم ، وقد طلبني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به . وأنا منهمرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طالب موضع أكون فيه ، واستمدما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ما يشغل به الوطاة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتسكين قد أفلح في سياسته ، فقد جدد أهل الشام ثقتهم به ، يدل على ذلك ما جاء في ردهم على خطبته من تلك العبارة : « أما اخترناك

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ — ١٦

لسياستنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو تألون جمداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ دونك وبين يديك في المدافعة عنك .

وكان بيد جوهر أمان من مولاه العزيز لأفتسكين ، وعائناً ، ودستاً من نياحه ، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتسكين في لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعد له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمان إلى نصابه . فكتب إليه أفتسكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه . ثم سار أفتسكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبيثنة ، ثم دخل دمشق وتمحصن فيها .

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سوراً يضم عسكره وحفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفتسكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتسكين في ٢١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ رغم ما أبداه من شجاعة فادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي يطلب منه السير إليه وممارنته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتسكين وسار إلى دمشق ، ولا شك أن جوهر لم ينس مصير جعفر في حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ . فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن موارده قد انضبت وأن المؤونة قد أعوزته ، وهلك معظم جنده . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم في الحروب ، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر وإسراعه إلى طلب الصلح .

أجاب أفتسكين جوهر إلى طلبه . فرحل هذا من دمشق في ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ ، وجد في المسير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار إليه بعد أن رحل

جوهري عنها إلى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتسكين لقتال جوهري^(١) . وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ، وكان المورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهري أن أفتسكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا الماء الأمطار التي يجمعها في الصحاري مما لا يكتفي جنده السكيف ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتسكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدلى جوهري إليها ووصل في آخر الليل . فتبعه أفتسكين والحسن القرمطي ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسمل معه حمل المؤن إلى جوهري في البحر ، واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معري^(٢) .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهري وبعد نظره الفضل في الخلاص من هذا المأزق الحرج ، في الوقت الذي كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتسكين

(١) ذكر المقرئ : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطي توفي بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتسكين والقرامطة . بينما يقول ابن الفلاني إن الحسن ظل يناصب القاطمين العداء ويثير القلاقل والفتن في سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميسدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن الفلاني ، فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان ، هذا إلى أنه قد سبق المقرئ بنحو ثلاثة قرون ، فقد توفي سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفي المقرئ سنة ٨٤٥ هـ

(٢) ابن الفلاني : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .

والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين والذى كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام وانتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يمسك باللين والدهاء ما عجز عن الوصول إليه من طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأينا يكتب إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يدع إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع رأينا جوهرأ يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم . وقد مهر جوهر فى هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى أفتكين من ناحية الدين وطالب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل فى الوقت نفسه على التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطى . حتى إذا ما نجح ببعض النجاح فى فصل عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما جميعاً .

وقد ذكر ابن القلاسى^(١) أن جوهرأ قال لأفتكين حين اجتمع به : « قد علمت ما يجمعنى وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريق فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والمواذعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول من يشب نار الفتنة ويسفر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك . » فأجابه أفتكين : « أنا والله واثق بك وبصحة رأى والمشورة منك . لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه . » فرد جوهر عليه : « إذا كان رأى والأمر على ذلك ، فإنى أحذرك على أمرى ،

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧

تعويلا على الأمانة ولما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، أن تمن عليّ بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين ممي وعندي ، وتذم لي لأمضي وأعسود إلى صاحبي شاكرآ . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المروءة ، وعقدت عليّ وعلى صاحبي مئة تحسن الأحادوة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها . فقال أفتكين : دافعل وأمن علي أن أعاق سبقي وريح الحسن بن أحمد علي باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . واقترب القاتدان ، فعاد أفتكين إلى مسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطي يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن إليه وقال له : لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . وجوهر هذا ذو رأي وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقدته معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على تصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فيأخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هر وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهرأ عليه وقال : قد عاهدته وحلفت له ، وما استعجز الغدر به . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتها (١) .

ولاشك أن جوهرأ لم يكن يجهل المثل المأثور والغاية تهرر الواسطة . فقد رضى أن يمر هو وجنده تحت سيف أفتكين وريح الحسن القرمطي ، في الوقت الذي كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شيء غير قليل من المنلة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الفاطميين . بيد أن جوهرأ كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً . هل أن جوهرأ إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتتحت الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطي يغفل عن هذه

الحقيقة حين أخبره أفتسكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التي تبيينها من قول القرمطي : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استغلك بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنسايه طاقة ، . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال في بلاد الشام . واستفحال أمر أفتسكين ومن معه . فقال له : « ما الرأى ؟ ، قال : « إن كنت تريدكم ، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على إثري ، فأمر العزيز بإعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتسكين والحسن القرمطي بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمل وعطس القتال^(١) ، « وجال أفتسكين بين الصغين يكر ويحمل يطعن ويضرب ، . فقال العزيز لجوهر : « أرنى أفتسكين » فأشار إليه « وهـ » . ويطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه ، . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأقعد إليه رجلا من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل : « يا أفتسكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي ، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مساعحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ، فترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى . فلك حمد الله وميثاقه ، أني أوثنتك وأصطفيتك ، وأنوه باسمك . . . وأهب لك الشام وأزكك في يدك ،^(٢) .

معنى نميرة إلى أفتسكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتسكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مرارا ومرغ خديه عليها معفرا وقال : « قل

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٢٨١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك اسارعت إليه ، وأطعت أمرك ، فأما الآن فليس إلا ما ترى . . وطاد نعيمة ونقل إلى العزيز ما سمع ، فقال له : « أرجع إليه وقل له يقرب مني بحيث أراه ويراني . فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل . . فضى نعيمة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذي أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنا بذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدي . . ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فمزما وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعيني رأسه فحمل بيمينته جيشه والمظلة على رأسه ، فمزم أفتسكين والقرمطى في يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٧ هـ وأعمل السيف في جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضياً من الغنيمة بالإياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية . وفر أفتسكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يحى به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يشمر به فطيف على جمل « فأخذ الناس ياطمون وجهه ، ويهزون لحيته ، حتى رأى في نفسه العبر . .

وسار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فأحسن الخليفة إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التي كانوا يلونها أيام أفتسكين . أما أفتسكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد في أنه مقتول لا محالة .

وهنا ظهرت صفات العزيز النادرة ، وحبّه للعفو عند المقدرة مع رجل دوح الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهي في عنفوان قوتها وكامل فتوتها . على أنه كان لجوهر أثر كبير في ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتسكين به وبجنده ، فطالما عمل على تلطيف مزاج مولاة العزيز وتمدنة نفسه الشائرة

ضد ذلك العدو الذي أغلق بابه وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسي أن أفتسكين لما دخل على العزيز في سرادفه ترجل من دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتسكين . إزاء الخفاوة به وبرجاله ، إلا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ماعلى رأسه وبكى بكاء شديداً سمع الحاضرون تشبجه وقال : « ما استحققت الإبقاء على ، فضلاً عن العفو الكريم والإحسان الجسيم ... » وامتنع من الجلوس في الدست وقعد بين يدي العزيز . وقد ألبسه جوهر على إثر وصوله من ملابس العزيز وهذا روعه . فجدد الدعاء وتقييل الأرض وشكر جوهرأ على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز في إكرام أفتسكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل أفتسكين ممتعاً بنعم العزيز حتى مات في سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسهم لفرغ أفتسكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقا منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

تقدير جوهر

إلى هنا انتهى بنا البحث في حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسي الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى أن الرجل العظيم هو الذي يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضي في الطريق الذي يشقه لها ، ومنهم من يرى أن الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلق الأيام وتلششه الحوادث وتبني له من الفرص ما لا يتهيأ لغيره وتخلق عليه من مظاهر العظمة ما تضمن به على سواء .

وقد اجتمع في جوهر الرايان جميعاً . فإننا لو نظرنا نظرة إجمالية إلى حياة هذا القائد ، رأينا أن عناصر عظمته هي مزيج من الحظ المؤاتي والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التي طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موفقاً وسياسياً حكيماً . إلا أن هذا وحده لا يكفي . لو لم تتح له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيوليه ثقته ويوليه إمرة جنده وقيادة جيشه لإتمام فتح ما بقي من بلاد المغرب وإخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيمة . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز في أقل من سنة . وهكذا تسكّفت ظروف الرجل ومواهبه في وضع الحجر الأساسي لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد ، فقد جعله على رأس الحملة التي وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالشرق ، بعد أن فشل في ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر في مصر لم يكن أقل منه في بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن إرسال الجنود لصد الأعداء عنها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال في مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج إلى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختر جوهراً بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعه في بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهراً عند ظن الخليفة به ، فتم على يده فتح مصر وانخذه الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهراً وحسن سياسته أثر كبير في استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من بغضهم للمذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهراً السياسة الفاطمية التي كانت ترمي إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهراً لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فإن سلطة الفاطميين لم تتوطد في بلاد الشام وفلسطين حتى خرج إليهم جوهراً بنفسه بعد أن أخفق في ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتحاذل عنه الجند وخر صريعاً في ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التي امتاز بها جوهراً .

وقد ساعد الحظ جوهراً ، ففضى على القرامطة وردم عن مصر مهزومين مدحورين ، وطالما ناقوا الإغارة عليها وفتحها كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهراً ومهارته الحربية لثم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين في مصر ، ولما تثبت دعائمه فيها .

لأزالت آثار جوهراً في مصر تنطق بأيادي القائد العظيم والفتح الكبير فهو منشئ القاهرة ، تلك العاصمة التي لم تلبث أن بدت خيرها من العواصم الإسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الإسلامية التي أنبسط نورها على الآفاق ، فقد فاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة الأمويين في الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء والكتاب . ناهيك ما ذكره ناصري خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي طاف بجميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ما وصلت إليه

من المدينة والحضارة ووقف على ما بلغته من العلم والفن ، فقد قال في كتابه :
« سفر نامه » إن القاهرة قد سبقت في عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا في كل
ناحية من نواحي الحياة .

وبما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه في السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل
الشدّة والعنف في نشر المذهب الفاطمي وإنما لجأ إلى الوسائل السلمية . فاعتمد
على المساجد التي اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهلالي تعاليم هذا المذهب ،
دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً
لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي حتى لا يضايق المصريين السنيّين في شعورهم
الديني في المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا
الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا أن الناس كانوا يساقون لتلقي
تعاليم هذا المذهب كرهاً . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهرأ عن الغرض
الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ
في جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك بإستناد مناصب الدولة الهامة إلى
معتنقي هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ،
فيقضي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي
المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته وخلصائه . فقد
ضرب على أيدي الجند المغاربة ومنعهم من التعمد على الأهالي ، حتى كان
يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله في ذلك مثل
عمر وبن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طنجج الإخشيد وصالح الدين
الأيوبي وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم في مصر
في العصر الإسلامي .

ولا شك أن جوهرأ يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية في مصر خاصة
والشرق عامة . وكان مولاه المعز يثق به ثقة لا حد لها . فقد ترك له ولاية

مصر أربع سنوات لم يفكر خلالها في الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها حتى ألح عليه جوهر في ذلك، مما يدل على أن المعز كان يرى في جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضاعف أثر قدوم المعز إلى مصر ، فأفل بحمه ودالت دولته وهذا أمر طبيعي : فقد عرف المصريون جوهر أ وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز في حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمي وتلاشى سلطانه . لذلك لا نعجب إذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد إلى الظهور إلا في فتوح سورية في عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكهم ، وكان ذلك في آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فإنه بعد أن وطئ سلطان الفاطميين في سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٦٨ هـ ، أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهر إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادي في توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقرئى (١) أن منجوتسكين (٢) التركي خرج من قهر العزيز سنة ٣٨١ هـ ونشط جواده ، وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة . وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتمهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أبا عمار أنه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى . وكان من بينهم منجوتسكين هذا ، وكان لا يزال غلاماً . فلما رآه المعز نظر إليه وتأمله ، فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للمعز « يا مولانا لقد فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه » . فقال « يا جوهر ! سوف ترى أن يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أظن أن ذاك الغلام هو الذى كان يعنيه مولانا المعز » .

لما صدره وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فزرع جوهر يده منه وقال :
« قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لىكل زمان دولة
ورجال . » أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى ، ولما
الممن لما سرت لى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ،
فتمجيب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتسكين .
أهرونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد
أنفت على الثمانين . .

وفى تلك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف
دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ . فبعث إليه
بالحنوط والسكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة
بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) . وكفن جوهر فى
سبعين ثوبا ما بين مثقل وموثى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن
بالقرافة الكبرى ، على ما ذهب إليه ابن لياس^(١) . وخلع العزيز على ابنه الحسين

(١) ج ١ ص ٥١

أنفرد ابن لياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره
من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه « السكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » ، والسخاوى
فى كتابه « نخبة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطوط والمزارات والتراجم والبقاع
المباركات » ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن
التي دفن بها مشاهير رجال التاريخ وكذلك المقرئى الذى عفى باستقصاء كل ما يتعلق
بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية .

أما المقبرة التى كانت بالجهة الشمالية للأزهر إلى وقت قريب ، والتى يزعم بعض الناس
أن جوهر أ الصقل دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنقلى من أمراء المماليك ، ولإليه
تنسب مدرسة الجوهريّة (الخطوط التوقفية: ج ٤ ص ٢٠ نقلا عن الغنى للسخاوى)

ابن جوهر وجملة في رتبة أبيه ، ولحقه بالقائد بن القائد ، وممكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والإشياء سنة ٥٣٨٦ (سنة ٩٩٠) ورد إليه النظر في أمور الرعية وتدير أمور الدولة (١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . واقد كان جوهر عاقلاً عادلاً ، محسناً إلى الناس . لهذا لا نعجب إذا حزوا لوفاته . فرائه الشعراء على اختلاف مذاهم وعقائدهم حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم ، وعلمه الغزير ، وشخصيته الكبيرة ، وصفاته العالية ، ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهرأ فإن مثله في الرجال قليل .

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ١٤ - ١٥ .

الباب السادس

دولة الفاطميين

التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

(١) خلفاء العصر الفاطمي الأول (٣٦٢ - ٤٨٧ هـ):

ظل جوهر الصقلي يحكم بنفسه منذ أن تم له فتحها عام ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) فاستأثر بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ وأخذ يعمل منذ تقلده زمام الخلافة على تنمية موارد الثروة واهتم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في مصر وغيرها من البلاد وأنشأ أسطولاً عظيماً لم ير مثله ، ومات بعد وصوله إلى مصر بقليل .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٤٨٦ هـ) وهو في الثانية والعشرين في عمره وكان قد قدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة . وما كاد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين . وتم له ما أراد وتوطد سلطان الفاطميين في سورية وأصبحت تلك البلاد ولاية فاطمية ، حاضرتها دمشق ، وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

ووجه الفاطميون في عهد العزيز بالله اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي ، وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السنيين تدريجاً .

وبنى العزيز كثيراً في المنشآت التي ندل على وفرة ثروة مصر في عهده
القصر الغربي وكان يقع غرب القصر الشرقي الذي بناه جوهر الخليفة ا
شرقي مدينة القاهرة في المكان الذي يقع فيه الآن خان الخليلي ومسجد الح
تقريباً ، وكان القصر الغربي الذي بناه العزيز أصغر من القصر الشرقي ، و
أطلق عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن قصر المعز وكان يقع مكان
النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح تعرض
أطلق عليه اسم « بين القصرين » .

وابنى العزيز قصوراً أخرى في عين شمس كما بنى في عهده قصر البحر ال
يقول ابن خلسكان أنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب واهتم
المساجد كمسجد الحاكم الذي أسسه سنة ٣٧٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأتمه
الحاكم ونسبه لإبيه . وأقام العزيز في جامع عمرو منبراً كان آية من آيات الف
كذلك أنه أثنى أئمة فنها وزينه بالسطور الحريرية المزركشة بالذهب وكان
كلها من رسم ولون واحد .

وكان الخليفة العزيز أول من حوّل الأزهر إلى جامعة وجعلها
لإشراف وزيره يعقوب بن كلس ونقل إليها الكثير من الكتب والمصاحف
وأجرى على الأساتذة المطايا والصلوات فكان يخلق النفيسة في الأ
ويحلمهم على البغال اعترافاً بما لمركزهم العلمي من أهمية وتقدير . وسرعان
التحق بالجامعة الأزهرية مشاهير العلماء في الفقه الإسلامي واللغة والنه
والمنطق والرياضة والطب وغيرها .

ومن أظهر صفات العزيز ميالة إلى الأبهة وخبرته بالجواهر والغرام بالاص
وخاصة صيد السباع ، كما كان ذكياً أدبياً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كريماً
محباً للفقير ، يعطف على النصارى واليهود . ومرض العزيز في بلييس في شم
رجب سنة ٣٧٦ هـ وكان في طريقه إلى الشام . ولما اشتدت عليه وط
المرض ، عهد إلى ابنه المنصور الذي تلقب بعده بالحاكم بأمر الله . ودفن

بعض عقود الجامع الأزهر - ومي من عهد إنشائه



العزب مع أبيه الممن في إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة .

ولى الحاكم الخلافة (٣٧٦ - ٤١١ هـ) بعد وفاة أبيه وكان إذ ذاك حدثاً فى الحادية عشرة من عمره فقام بأمر قريته مرييه برجوان . وحياة الحاكم متناقضة متضاربة حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة وسماء الأستاذ مرجريوث Margoliouth ، الحاكم المجنون ، The Mad Hakem ، وقال عنه المقرئى ، إنه كان يعتربه جناب فى دماغه ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله لا تمل وأحلامه وسياسته لا تؤل . من ذلك أنه أصدر سنة ٣٩٥ هـ مرسوماً بحرم بيع الملوخية لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن استعمال الجرجير لأن طائفة كانت تأكله ، ونهى أيضاً عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يعطروه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخية والقرع والجرجير لأن أبى بكر وهائشة ومعاوية كانوا يحبون أكلها ثم نهى عن بيع الفقع وهو نوع من الخمر وشدد فى ذلك لأن علياً كان يكرهها . وقد أساءت هذه الأوامر إلى السذج الذين كانوا يكونون السراد الأعظم من المصريين .

وادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ونسب إليه أنصاره بعض الصفات التى لا يتصف بها إلا الله حتى اعتقد البعض أن بيده الحياة والموت ، فكان إذا بدا للناس فى الطرقات سجدوا له !

وذكر المؤرخ ابن زولاق أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من الفساق يندسسون فى دور بعض الناس ليكشف ما يحدث فى هذه الدور وتقديم تقارير عن ذلك فى اليوم التالى إلى الخليفة الذى كان يستدعى هؤلاء ويخبرهم بما حدث فى بيوتهم . وكان نتيجة هذا أن أصبح بعض الناس يمتقدون أنه يعلم بالغيب .



منارة جامع الحاكم

وظهر تناقض الحاكم جلياً : حين حرم على الناس الخروج ليلاً من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ومنع النساء من الخروج ومن الظهور غير متنقيات والابتعاد عن الجنائز أو يظمن للناس في حالة منافاة اللاداب والحشمة وحرم عليهم الظهور في أعلى المنازل ودخول الحمامات العامة ومنع صانعي الأحذية من أن يعملوا أحذية خاصة بهم ، وظل النساء في بيوتهن سبع سنين حتى ولي ابنه الظاهر .

ولسكن رغم ذلك فإن الحاكم قد قام ببعض أعمال نافعة ، من ذلك أنه أتم بناء جامع الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز وزاد في بناء الجامع الأزهر . ومات الحاكم سنة ٥٤١١ هـ مقتولاً وقيل إن أخته ست الملك كان لها يد في قتله .

وجاء بعده ابنه الظاهر (٤١١ - ٥٤٢٧ هـ) وتمتع المصريون في عهده بالسلام والطمأنينة بعد عهد الاضطهاد والفرق الذي اتصف بهما عهد أبيه الحاكم وكان الظاهر رجلاً عاقلاً عادلاً حليماً دمث الأخلاق فقد ألغى القوانين التي كان قد أصدرها أبوه .

وجاء بعد الظاهر ابنه المستنصر (٤٢٧ - ٥٤٨٧ هـ) وقد حكم مصر والبلاد التابعة لها ستين سنة ، وظهرت مصر في أوائل عهده بمظهر القوة والعظمة . وفي عهده زار مصر ناصري خسرو الشاعر الفارسي فوصلها في صفر سنة ٥٤٣٩ هـ وأقام فيها إلى ذى الحجة سنة ٥٤٤١ هـ . وكانت مصر حين زارها هذا الرحالة في عصر المستنصر في مجبوحة من العيش وكان الخليفة محبوباً من الشعب ولم يكن أحد يخشى سلباً أو نهباً وكان تجار الجواهر والسيارف لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم .

واسكن بعد ذلك عاودت مصر المصائب وقد خفف من وقعها الوزير
اليازورى الذى قبض على زمام الأمور تسع سنوات وعالج خطر المجاعة بوضع
يده على مخازن الغلال ، وبعد وفاة هذا الوزير عادت الفوضى إلى مصر ،
وكانت السلطة إذ ذاك بيد الجنود التركية فانتهروا تلك الفرصة ونهبوا المدينة
وأصبح بيت المال خلوًا من المال المطلوب لإرضاء هؤلاء الجنود فلجأوا
إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة . وفى سبيل ذلك ألقوا قصور
الخلفاء الجميلة وهددوا المجموعات الفنية التى لاتقوم ، والأحجار الكريمة
والجواهرات ، وأغاروا على المسكنات المنقطة النظير .

وقد شل الحركة الزراعية والتجارية فى الديار المصرية ، ذلك الرعب
الذى ألقته الجنود السودانية المنبثة فى جميع أنحاء البلاد . ولم يكن هناك
ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد
فشمرت مدينة القاهرة ومدينة القسطنطين بندرة الأقوات شعوراً قاسياً ، وبدأ
ما عرف فى تاريخ الفاطميين باسم «الشدة العظمى» ، وفيها بلغ ثمن الرغيف ١٠ دينارا
وكانت المنازل تباع بربع من الدقيق وعرضت الجواهر الثمينة نظير شيء من
الطعام فلم يوجد من يشتريها ويبيع الخيل والحير والكلاب والقطط بأثمان
هائلة ثم ندر وجودها وقلت دواب اسطبل الخليفة وأصبح الناس يخطفون
بعضهم بعضاً وبيع لحم الإنسان هند الجزارين وأجرت بنت أحد الفقهاء
وخيفين على الخليفة كل يوم حتى رأى المستنصر نفسه فى إحدى حجراته
جالسا على حصير بالية لا يساقبها .

وانتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود
التركية ، وتوفى خلال سنة ٤٦٥ هـ ، وتقلد بدر الجمالى الوزارة . وكان أرمى
الأصل ، يعرف فيه المستنصر الهمة والبسالة وحسن الإدارة ، فاستنجد به الخليفة
لبتضى على العناصر التركية المتنافرة فجاء إلى القاهرة وقبض على هذه العناصر
بيد من حديد ووضع حداً للفوضى والهجرات وأعاد همد سيطرة القانون ثم

تفرغ لإصلاح ما أفسده الأتراك : فخصن المدينة بأن أحاطها بالأسور الذي يعرف باسم سور بدر الجمالى وأصلح أبواب القاهرة وبقي جامع الجيوشى وتلقب باسم أمير الجيوش . ومات المستنصر وبدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ ، أى فى سنة واحدة .

٢ - خلفاء العصر الفاطمى الثانى (٤٨٧ - ٥٦٧ هـ) :

بعد المستنصر ، جاء الخليفة المستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، ولم يقع فى أيامه ما يستحق الذكر ، ولم يكن له من الأمر شئ كثير أو قليل ، لأن السلطة والنفوذ فى عهد خلفاء العصر الفاطمى الثانى أصبحتا فى يد الوزراء ، وصارت تلك الظاهرة قاعدة الحكم ، منذ أن بدأت وزارة الجمالى : فكان المستعلى مع وزيره الأفاضل بن بدر الجمالى ، مسلوب السلطة ، كما كان المستنصر مع أبيه بدر .

وبعد المستعلى جاء الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، وقبض على ناصية الحكم فى عهده الوزير الأفاضل بن بدر الجمالى وتمسك الأمر من بناء قصر الهودج فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية ، ومن إنشاء جامع الأقمر . وتوفى عام ٥٢٤ هـ وخلفه الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) الذى كان هو والخليفة الأمر مسلوبى السلطة فى عهد ذلك الوزير وفى عهد ابنه أبى على بن الأفاضل .

وبذلك فإنه فى ذلك العهد الأخير من أيام الفاطميين ، أصبح الوزير رب السيف والقلم بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه نصف نفوذ الخلفاء ضدهما واضحا بحيث أصبحوا طوال ذلك العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استغفلت قوتهم وتضخمتم ثروتهم . ولا شك أن الخلفاء قد شعروا بشئ كثير من المضايقة لسلب السلطة منهم . وبعد مقتل الوزير الأفاضل فى عهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) تولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفاضل بن بدر الجمالى فنع الخليفة من النظار فى أمور الدولة ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ، ثم استولى على ما فى القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة فى



جامع الأقمر - الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي

الخطبة وذكر اسمه بدلا منه وتلقب بألقاب منها : ماصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق ، ودافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم . وفى هذا انتهى الدلالة على مبلغ سطوة الوزراء وضعف الخلفاء .

وولى بعد الحافظ الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ثم جاء بعدهما العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين . وكانت مصر فى عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة فى عهد انحلال ، انتهى بسقوط هذه الدولة .

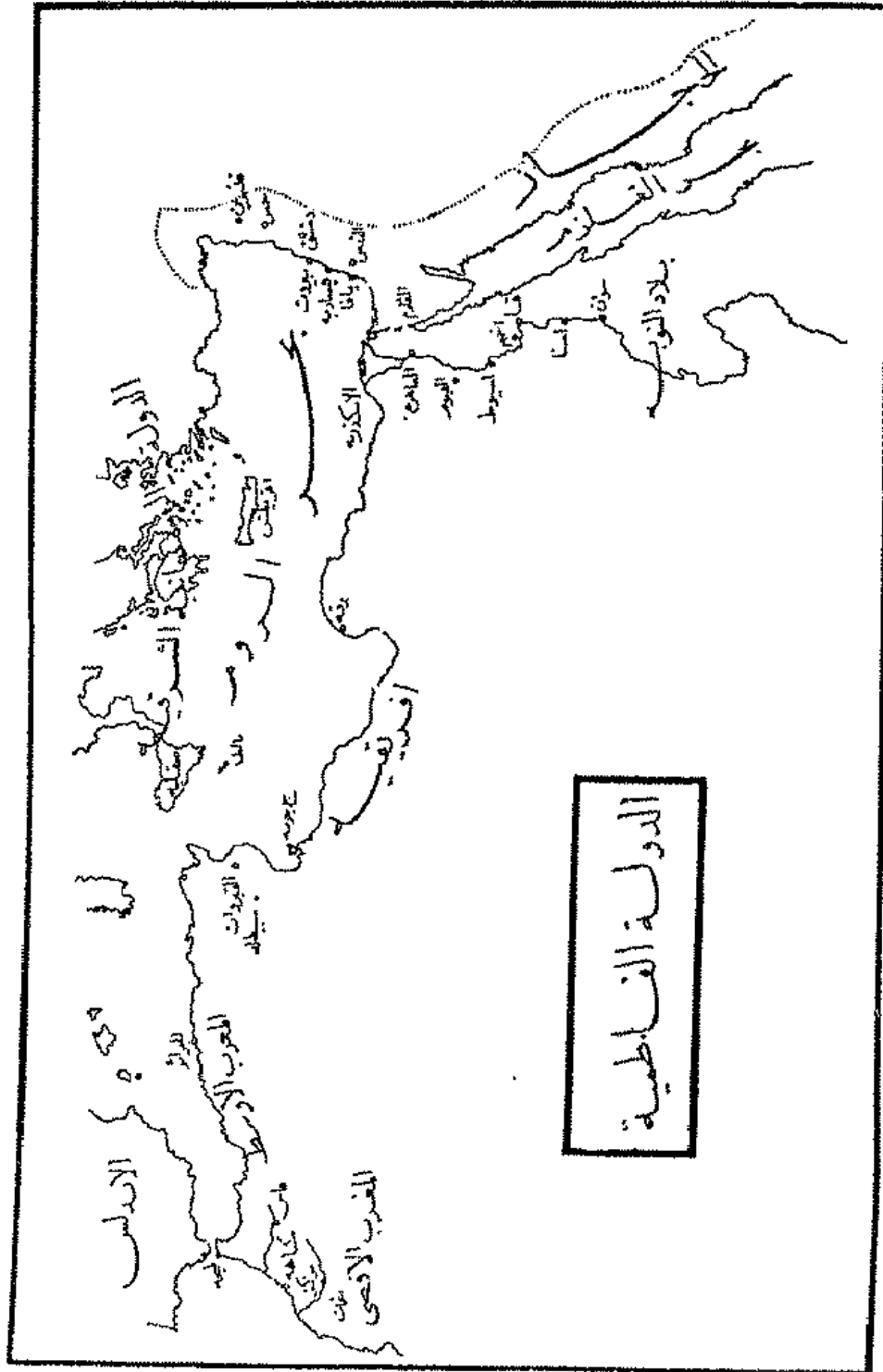
٣ — تقدم سلطان الفاطميين :

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الأقطار التى أصبحت تحت سيطرة الفاطميين عن سلطانهم ، أن يتتبع كيف تأسست الدولة الفاطمية فى المغرب وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق ونحوها إلى إمبراطورية :

١ — استولى أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت تشمل المنطقة المعروفة اليوم باسم تونس . ثم مد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين نفوذه على بلاد المغرب حتى مدينة فاس فى مراكش ، كما اعترف بسلطانه حاكم صقلية ، وبعث عبيد الله المهدى حملتين لغزو مصر ، وكان من المحتمل أن يستولى عليها لولا قيام أهالى بلاد المغرب بالثورات فى وجهه طوال مدة حكمه .

٢ — وفى عهد المعز ، انتشر سلطان الفاطميين على شمال إفريقية ، بفضل مهارة جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وفى سنة ٣٥٨ هـ فتح جوهر مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز الفاطمى على منابر بلاده .

٣ — وفى عهد العزيز الفاطمى ، امتد نفوذ الفاطميين على جزيرة صقلية



في البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره الخليفة العزيز والقائد جوهر من الماهرة الحربية .

٤ — وفي الشطر الأول من خلافة المستنصر ، اعترف الصليحي الشيعي الذي أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بسلطان المستنصر في اليمن حول سنة ٤٥٥ هـ . وفي عهد المستنصر أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحواً من ستة على يد البساسيري .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية في عهد الخلفاء الفاطميين . ولكن منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمي الذي اعتلى الخلافة منذ عام ٤١١ هـ ، بدأت الدولة الفاطمية في الانكماش .

١ — ففي بلاد الشام : خرج صالح بن مرداس السكلافي على الخليفة الظاهر واتجه إلى حلب وظل يحاصرها إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليها ، وكذلك تغلب ابن المفرج البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره في اضمحلال نفوذ الفاطميين في هذه البلاد .

٢ — وفي الحجاز : فقد حدث في عهد الظاهر أيضاً ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات ، وقال : إلى متى يعبد الحجر ! ولا محمد ولا عليّ يقدران على منعي عما أفعله ، إلى أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المسكيون ثاروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا ما معهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن ساءت العلاقة بين المصريين والحجازيين ، وظلت الفتنة مشتتة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ويعرف بأبي الفتوح حسن إخمادها .

٣ — وفي غزة شمال غرب الهند : كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزة قد عظم أمره ، فكتب إليه الظاهر كتاباً يدعو فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . ولكن ابن سبكتكين لم يعبأ بالخليفة الظاهر .

ولم يكبد يتولى الخلافة في مصر ، الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، الذي
تولى الخلافة عام ٤٢٧ هـ ، حتى تقلصت الإمبراطورية الفاطمية وانكشفت إلى
أضيق حدودها :

١ — فنار أهل إفريقية (٤٤٣ هـ) ضد الحكم الفاطمي وأظهروا استيائهم
من عقائد المذهب الشيعي واعترفوا بسلطان العباسيين ، ثم تسكونت في بلاد
المغرب دول إسلامية مستقلة .

٢ — استقل روجر الترمندى بصقلية ، بعد أن استولى عليها من الفاطميين
(٤٤٣ هـ) . ورحل عنها العلماء العرب وخضع أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ — قطعت الخطبة للمستنصر في بلاد اليمن ، على أثر وفاة الصليحي أمير
اليمن ، الذي كان قد أقام الخطبة للفاطميين .

٤ — قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة للمستنصر (٤٦٢ هـ) على أثر
انقطاع الأموال التي كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية
من الأوبئة والمجاعات التي مزقت شملها كل مزق ، وخطبا للخليفة القائم بأمر
الله العباسي .

٥ — تمكنت جيوش العباسيين التي أرسلها ملككشاه الساجوقي إلى الشام
من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق (٤٦٧ هـ) وقطع الخطبة عن
المستنصر وإحلال الخليفة العباسي في الخطبة مكانه .

٦ — لم يستمر إشراف الخليفة العباسي على شمال إفريقية ، بعد ثورة أهالي
تلك الجهات ضد حكم الفاطميين واعترافهم بسلطان العباسيين ، فإن الفرنجة
بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية
الشمالى ، فاستولوا على مدينة الممديّة العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد

المغرب ، وظل الفرنجة بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن بن علي الذي استطاع (٥٤٠ هـ) أن يحشد جيشاً كبيراً غزاه به بلاد شمال إفريقية فاستولى على مراکش والجزائر ثم على تونس ، وتابع الزحف شرقاً حتى حدود مصر الغربية وضم إلى سيطرته طرابلس وبرقة . وبذلك تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية في شمال إفريقية .

٧ — استقل نور الدين محمود بن زنكي بحلب ودمشق ، ثم احتل الصليبيون المدن الساحلية في فلسطين وسوريا ، وما لبثت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية أن أصبحت محل النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين عقب اشتداد النزاع على كرسى الوزارة في العصر الفاطمي الثاني ، وظهرت الجيوش النورية والصليبية على أرض مصر . وكان من أثر الحملات النورية على مصر بقيادة شيركوه ، أن أسندت الوزارة في مصر في عصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين إلى شيركوه . وبوفاة شيركوه بعد شهرين من وصوله إلى الوزارة ، أسندت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذي أعاد إلى الأذهان سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ومحمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، إذ استطاع صلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية التي استقلت بمصر مع التبعية الاسمية للخلافة العباسية . ولم تعد مصر بذلك مقر خلافة بل أصبحت دار سلطنة .

٤ — سقوط الفاطميين :

ويرجع سقوط الفاطميين إلى أسباب عدة ، من أهمها : أن الخلفاء الفاطميين لم يتركوا البساطة التي كانت تمتاز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم في شمال إفريقية انغمسوا في الترف والبذخ في قصورهم الجميلة في القاهرة وجعلوا إدارة دولتهم في يد مواليتهم من البربر . فكان من أثر هذه السياسة أن اغتصب

الوزراء تدريجاً تفوذ الخلفاء حتى أصبحوا يلقبون بلقب ملك بينما كان سادتهم الخلفاء منزوين في قصورهم . وبعد أن كان تفوذ الفاطميين يشمل في الشعار الأول من حكمهم شمال إفريقيا والشام وجزيرة رودس وذكرت اسماء الخلفاء الفاطميين في الخطبة في الجوامع ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر وفي اليمن والحجاز والموصل .

رغم هذا ، فإن قوة الفاطميين ابتدأت في الانحلال وذهبت أسعد ساعات الخلافة الفاطمية ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة في اختيار الخلفاء الأكفاء ومبايعة الأطفال بالخلافة ليسهل على الوزراء والحجاب الأفراد بالسلطة . لذلك فإنه في سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقيا عقائد المذهب الشيعي وقضا نهائياً . وانتهى الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب سنة ٥٧٣ هـ . وكان العهد المظلم الذي أعقب وفاة الوزير البازوري قبل ذلك . كذلك قامت الحروب العنصرية بين الجنود المرتقة من الأتراك والسودانيين وإن كان تقلد بدر الجمالي للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكري .

وإن البحث الدقيق في أسباب سقوط الدولة الفاطمية يدلنا على أن السبب الأساسي يرجع غالباً إلى الحروب الصليبية . فإن تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين في الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والحيولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب دمشق والصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد وأخذ كل منهما يعمل على امتلاكها .

وقد ظهرت إذ ذاك عظمة صلاح الدين ، الذي كان نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق قد أرسله إلى مصر مع عمه اسد الدين شيركوه على رأس جيش لقتال الصليبيين وطردهم من مصر . ولما تم له ذلك عين صلاح الدين وزيراً بعد وفاة أسد الدين شيركوه وخصص جموده كلها لطرده الصليبيين من بقية البلاد

التي فتحوها . ثم عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه في مصر فتمكن بحسن سياسته أن يكتسب ثقة الأهلين ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وظل يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة العاضد الفاطمي حتى جعله سجين قصره ، فأنازل ذلك سخط أهل القصر وأتباع الخليفة وجنده من السودان ودبروا المؤامرات للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وأمر بمراقبة زعيمها ، وتمكن من القبض عليه وقتله كما قتل كثيراً من السودانيين . فثار خمسون ألفاً لأخذ بثأر ذلك الزعيم وكان يسمى نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في المسكان المعروف باسم : بن القصرين ، وأحرق في هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع ، ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين فمروا إلى الجيزة ومنها ذهبوا إلى الصعيد ، واستمروا في ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة ، وبعد أن تم له النصر عليهم طلب من نور الدين أن يرسل إليه آباء وأقاربه فلم يلبى طلبه . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الفرنجة في دمياط ، أن تعلق به المصريون على اختلاف نحلهم من شيعيين وسنيين ، فانفقوا معه على محاربة أعدائهم من الفرنجة :

كذلك استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين من حسن التفاهم بينه وبين المصريين حتى استطاع أن يستند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني ، بل لقد جرى في سياسته إلى أبعد من ذلك وهو التمسك بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي . وانضوى تحت لواء صلاح الدين كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، كما استطاع صلاح الدين أن يجمع العناصر التي لم يثق بها في جيشه . ومن الطبيعي أن يرغب نور الدين وهو من خلافة السنة في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي وهو عمل ينطوي تحته إرالة الدولة الفاطمية .

وقد علم صلاح الدين برغبة نور الدين ، ولكنه تردد في تنفيذ هذه الرغبة لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالي مصر . ولكن نور الدين تعهد في الطلب .

وكان الخليفة العاضد مريضا في ذلك الوقت ، فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء واستشارهم في مسألة ذكر اسم الخليفة العباسي بدل اسم الخليفة الفاطمي فوافق بعضهم ، واخذوا على عاتقهم تنفيذه ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . وكان في هذا المجلس رجل فارسي اسمه الأمير اعترم أن يتولى بنفسه هذا الأمر وصعد في يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسي المستضيء فلم يحتاج أحد على ذلك وأمر صلاح الدين في الجمعة التالية بإقامة الخطبة للخليفة العباسي .

وهكذا تم ذلك التغير من غير أن يلقى مقاومة ، ولم يظهر الخليفة العاضد بذلك . وكان مريضا ، وقال أعضاؤه أسرته : إن عوفي فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته .

وتوفي الخليفة العاضد في ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ من دون أن يعلم بهذا التغير ، فجلس صلاح الدين للعرش واستولى على القصر وما فيه من كنوز وطرائف وأسكن أولاد العاضد وأعمامه في جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد أن حكمت مصر عسرا طويلا (٣٥٨ هـ — ٥٦٧ هـ) وكان عصرها عصر يسر ورخاء وتسامح وتدين وثقافة ، وذلك لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الخلافة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي بعد أن قطعت الخطبة له في مصر وفي سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر في قرنين . إن هذا كله يمكن تفسيره بانتصار السنة على الشيعة .

تقدير الفاطميين :

مهما قيل في الدولة الفاطمية ، فإن الباحث في تاريخ هذه الدولة ، لا يسهه إلا أن يذكر ما أدته لمصر من جليل الخدمات وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن ، تشهد بعصرها بالقوة والعظمة ولخلفاتها الأول بالنفو والسلطان .

١ — انتقل الفاطميون إلى مصر ، فأصبحت مصر مقر خلافة لأول مرة في تاريخها ، بعد أن كانت مقر إمارة يحكمها ولاية .

٢ — تمتعت مصر الفاطمية ، بجميع مظاهر الاستقلال ، وصارت مستقلة استقلالاً تاماً .

٣ — امتدت دولة الفاطميين من المغرب ومصر ، إلى الشام والحجاز ، على حساب العباسيين ، واعترف بسلطان الفاطميين في شمال إفريقيا ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ما وراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد عاصمة العباسيين .

٤ — بنى الفاطميون مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية .

٥ — نشط الفاطميون في بناء المساجد لفشر الدعوة الفاطمية : فبنوا الجامع الأزهر الذي حوله الخليفة العزيز إلى جامعة تعرف باسم الجامعة الأزهرية .

٦ — أسس الفاطميون دور الكتب لتشجيع البحوث في العقائد الإسماعيلية فأسسوا مكتبة القصر ودار الحكمة ودار العلم .

٧ — ازدهرت التجارة في عصر الفاطميين ، إذ اتصلوا ببلاد الهند والصين ومجنتوني أوربا ، كما كان للفاطميين شهرة عالمية في صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة النمايل والنقش على الخشب .

مصر الإسلامية بعد سقوط الفاطميين :

تأسست على أثر سقوط الفاطميين ، دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين الأيوبي من أبرز شخصيات العالم الإسلامي . وتميز عهد الأيوبيين بالعمل الدائم في القضاء على الصليبيين ، ولكن عجل سقوط الأيوبيين قيام النزاع على عرش السلطنة مما أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية التي حكمت مصر على نسق الدولتين الطولونية والإخشيدية . فقد كانت تحكم إسمياً من بغداد مقر الخلافة العباسية ، ولعب مؤسسها صلاح الدين نفس الدور الذي لعبه ابن طولون والإخشيد . واعتبرت مصر منذ قيام الدولة الأيوبية ، سلطنة يحكمها سلاطين بعد أن كانت دار إمارة ثم دار خلافة .

ويبدأ تاريخ دولة المماليك في مصر عقب سقوط الأيوبيين . وفي عهدها تمتعت مصر بكافة مظاهر الاستقلال ، وزال عهد التبعية الفعلية والإسمية من مصر ، وأعادت إلى الأذهان عهد الفاطميين ، وأن حكام المماليك لقبوا بلقب سلاطين وليس بلقب خلفاء كخلفاء الفاطميين . وصارت مصر في عهدهم مركز الخلافة بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد ، وصارت مصر يحكمها في عهد المماليك : سلطان له الإشراف السياسي على شئون الدولة ، وخليفة له الإشراف الديني ومنه يستمد سلطان المماليك سلطته الشرعية .

فترات حكم الدول التي حكمت مصر الإسلامية :

أولاً : فترات كان يربط مصر بالخلافة ، الخطبة والجزية والسكة .

١ — عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ — ٨٤٠ = ٦٤٠ —

٦٦١ م .

٢ — عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ — ١٣٢ = ٦٦١ —

٧٥٠ م .

٣ — عهد تبعية مصر للخلفاء العباسيين ١٣٢ — ٢٥٤ هـ = ٧٥٠ — ٨٦٨ م
٢٩٢ — ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ — ٩٤٣ م .
ثانياً : فترات كانت مصر مستقلة في الحكم ، مع التبعية لغيرها في الاسم فقط :

- ١ — زمن الطولونيين ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م .
 - ٢ — زمن الإخشيديين ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٧ — ٩٦٩ م .
 - ٣ — زمن الأيوبيين ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ = ١١٧١ — ١٢٥٠ م .
- ثالثاً : فترات كانت فيها مصر مستقلة استقلالاً تاماً :
- ١ — زمن الفاطميين ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ — ١١٧١ م .
 - ٢ — زمن المماليك ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ — ١٥١٧ م .

مصادر الكتاب^(١)

مرقبة حسب أحرف الهجاء بالترتيب لأسماء المؤلفين

أولا : مصادر عربية مخطوطة

- ابن حجر العسقلاني (٨٥٣ هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن علي .
« رفع الإصر^(٢) عن قضاة مصر » .
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥) .
- العيني : (٨٨٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدين محمود .
« عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، ٢٤ جزءاً في ٦٠ مجلداً .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٤ تاريخ .
- العمري : (٧٤٢ هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، ٢٠ جزءاً .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .
- أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين سيف بن تغري بردى .
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الجزء الرابع .
مخطوط بدار بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .
- المقرئ : (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي .
« كتاب السلوك في معرفة دول الملوك » ، الجزء الثالث .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هي سنة وفاته مبينة بالهجرى والميلادى .

(٢) الإصر : الذنب .

- النويرى^(١) : (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
« نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ٣٢ جزءا .
صور شمسية بدار السكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف عامة ، مأخوذة من
النسخة الخطية الموجودة بالمسكتبة الأهلية بباريس .
ثانيا : مصادر عربية مطبوعة
أحمد هيمى : تاريخ البيارستانات في الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م)
الإدريسى^(٢) : (٦٤٩ هـ = ١١٨٨ م) .
« كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصار والاقطار والبلدان » .
ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٧ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا (بولاق سنة ٢٩٤ هـ)
ابن الإخوة : « معالم القربة في أحكام الحسبة » (طبعة روين لينى Rubien
Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .
ابن إياس : (٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .
« كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم « بدائع الزهور » ، ٣ أجزاء (بولاق
١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .
ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .
« تحفة النظر في غرائب الأوصار ومعجائب الأسفار » جزاءن (القاهرة
١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ترجمة إلى الفرنسية ديفرييرى Defremery
وسانجيني Sanguinetti (باريس ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٨٦٩ -
١٨٧٩ م) .

(١) اشترك النويرى في حروب المماليك اشتراكا فعليا ، ووصف كثيرا من
وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التي يثبت بها وجهة نظره فيما أدلى به من آراء .
(٢) جلت شهرة الإدريسى لآعن طريق تأليفه هذا الكتاب ، بل رسمه خريطة
للعالم في العصر الذى عاش فيه .

- البكري^(١) : (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) .
• كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، .
البيروني^(٢) : (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) .
• الآثار الباقية عن القرون الخالية ، .
ابن تيمية : • الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، جزء واحد
ابن جبير : (١٦٤ هـ = ١٢٨٧ م)
• رحلة ابن جبير ، (طبع في لندن سنة ١٨٥٢ م) .
جورجي زيدان : • تاريخ المدن الإسلامي ، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢)
حسن إبراهيم حسن : • عمرو بن العاص ، (القاهرة ١٩٢٣ م) .
• الفاطميون في مصر ، عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م) .
• تاريخ الإسلام السياسي ، — ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦) .
• انتشار الإسلام بين المغول ، (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية ،
مايو سنة ١٩٣٣) .
• عبيد الله المهدي ، (القاهرة ١٩٤٧)
• المعز لدين الله ، (القاهرة ١٩٤٧)
ابن خلدون : (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) . عبد الرحمن محمد .
• مقدمة ابن خلدون ، (بيروت ١٩٠٠ م) .
• المعبر وديوان المبتدأ والخير ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م) .
ابن خلسكان : (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد

(١) ينسب البكري لابن بكر الصديق ، وبكتابه معلومات جلية الشأن عن شمال
إفريقية وسكانها .
(٢) البيروني من سكان بيرون Berun أحد أحياء جنوة ، وكان يطلق على الحي
والبلدة اسم خوارزم .

- ابن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان .
(بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة العينية بمصر ١٢١٠ هـ) .
ابن دقاق : (٧٠٩ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصري .
الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، جزء ٤ ، هـ القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ =
١٨٠٣ م) نشره المستشرق فولز Ed. Vollers
راشد البروائى : الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨ هـ) ، كتاب جامع التواريخ ، ترجمه إلى
الفرنسية مسيو إتيين كترمير E. Quatremère . وانتهى رشيد الدين من
تأليفه سنة ٧٠١ هـ (١٠٣١ م) .
زكى محمد حسن :

- الفن الإسلامى فى مصر ، (القاهرة ١٩٣٥ م) .
مصر والحضارة الإسلامية ، الرسالة الخامسة عشر من سلسلة الثقافة
المسكينة التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحرية .
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، (القاهرة ١٩٤٥) .
ابن زولاق : (٣٧٨ هـ = ٩٩٧ م) .
العيون الدعيج فى حل دولة بنى طنج ،^(١)
المسبكي : (٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب .
معبد النعم ومعبد الفقير ، (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولحم موهر من
David W Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ٦ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، لكنه أمدنا فى الوقت نفسه
بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٣٨٦ هـ .

- سعيد بن البطريق^(١) : (٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) .
• التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . .
السيوطي : (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
• حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، (القاهرة سنة ١٨٨١ م)
ترجمه إلى الإنجليزية الميجر هـ . س . هرت (كاسكتا سنة ١٨٩١ م)
• تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الآلة . . إدارة المطبعة النورية
سنة ١٣٥١ هـ .
ابن شاكر : (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م فخر الدين محمد بن أحمد السكتي
• فوات الوفيات ، (بولاق ١٢٩٩ م)
أبو شامة : (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٥٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن
أبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أهل دمشق .
• كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،
Recueil des Historiens Croisades. Historiens Orientaux. t. VI.
وهناك طبعة أخرى في مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م) .
أبو صالح الأرمي : (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م) .
• تاريخ أبي صالح الأرمي ، المعروف باسم « كنائس وأديرة مصر » ،^(٢)
طبعة Evetta في أكسفورد سنة ١٨٩٥ م ، وقرن نصه العربي بترجمة
إنجليزية .

(١) كان سعيد بن البطريق معروفا باسم أوتيوخا Eutychus عند الأفرنج
وكان بطريقا للقبط ، وكتب كثيرا عن تاريخ مصر ، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية ،
إلا أن لغته يعيبها الركاكة وأتم كتابه رجل من أنطاكية يدعى يحيى بن سعيد الماتوني
سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .

(٢) فيه يكتب المواقف تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء البحارى
وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعاتها وخراجها .

- ابن طباطبا : ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأنتم كتابه سنة ٨٧٠١ هـ (ولا تعرف سنة وفاته) . محمد بن علي المعروف باسم الطقطقي .
- والفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ١٩١٣ م)
- ابن عبد الحكم^(١) : (٢٨٦ هـ) : كتاب فتوح مصر والمغرب .
- عبد الرحمن زكي : القاهرة ، (١٩٤٣) .
- عبد اللطيف البغدادي : (٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) مختصر تاريخ مصر .
- علي إبراهيم حسن :
- جوهر الصقلي ، (القاهرة ١٩٦٣ م) .
- النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور كنور حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢ م) .
- دراسات في تاريخ الممالك البحرية ، (القاهرة ١٩٦٣)
- استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ المصري الوسيط ، (القاهرة ١٩٦٣)
- التاريخ الإسلامي العام ، (القاهرة ١٩٦٣)
- الجيش والبحرية في عصر المماليك ،
- الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التي تصدرها إدارة الشؤون العامة في وزارة الحربية ، (القاهرة ، مارس ١٩٤٤)
- آراء في تاريخ دولة المماليك البحرية ، .
- (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، ١٩٤٤) .
- أخطر المجاعات في مصر ، ودعامة القاطنين ، (بحثان في مجلة السكتاب عددًا يونيه وديسمبر ١٩٤٦) .
- دراسات مصادر التاريخ الإسلامي وحياة مؤلفيها ،
- بحث بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد — العدد الأول — حزيران ١٩٥٩

(١) كان ابن عبد الحكم معاصراً لأحمد بن طولون، ومات بعده بست سنوات وكتابه من أقدم الكتب التي كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية .

على مبارك : ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٣٠ جزءاً في أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٥ هـ) .

عمارة اليمنى ^(١) (٦٥٩ هـ = ١١٧٤ م)

« كتاب النكت المصرية في اخبار الوزراء المصرية » .

« ديوان عمارة اليمنى » .

العمري : (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين احمد بن فضل الله .

« مسالك الابصار في ممالك الامصار » الجزء الاول .

نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكي ، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .

« التعريف بالمصطلح الشريف » (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .

عمر طوسون : « كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ،

(الاسكندرية سنة ١٩٤١)

ابن أبي الفضايل ، مفضل : « النهج السديد والدر الثريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

« Texte Arabe Publiée et traduit en Francais par E. Blochet, Palaeologia Orientalis. t Fasc. 3 Paris, III, 1930

ابن القلانسي : (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو علي حمزة .

« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)

القلقشندي ^(٢) : (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس احمد .

« صبح الاعشى في صناعة الإنشا » ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٧ م) .

« ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (القاهرة ١٠٩٦ م) .

(١) تنحصر أهمية عمارة في معاصرتة للحوادث التي جرت لمصر في أواخر أيام

الفاطميين ، فكان ~~كشاهد~~ عيان لهذه الحوادث .

(٢) ولد سنة ٨٥٦ هـ ببلدة قلقةشندة من أعمال مديرية القليوبية

الكندى^(١): (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
«كتاب الولاية والقضاء» به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب «رفع الإصر
عن قضاء مصر» لابن حجر العسقلاني ، طبعة رفن جست .

E. J. Y. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R. Guest

الموردى: (٤٥٠ هـ = ١٥٠٧ م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصرى
والأحكام السلطانية ، (القاهرة ١٢٩٨ م)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٨٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٠ أجزاء .

(مطبعة دار المكتب المصرية سنة ١٣٥٠ - ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٠ - ١٩٤٠ م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) - طبع جامعة

كليفورنيا بإشراف William Popper

محمد محمود هرنوس . «تاريخ القضاء فى الإسلام» ، (القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م
المقريزى^(٢) ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م ، تقى الدين أحمد بن على

«المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» جزءان ، بولاق ٨٢٧٠ هـ .
نشر مسيو جامستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، فى أربعة
مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ -
١٩٤٢ م)

(١) كان الكندى مصرى المولد والدار ، ولما توفى سنة ٣٥٠ هـ أنتم كتابه ابن زولاق
المصرى الجنس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى خلافة الحاكم بأمر الله ووصل فى كتابته إلى
سنة ٣٨٦ هـ أى قبل وفاته بسنة ، وأتى بعدهما ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ
(١٣٤٩ م) ، وأنتم كتاب القضاء وسماء «رفع الإصر عن قضاء مصر» ، ونشرت هذه
الكتب الثلاث كلها مع بعض .

(٢) ولد تقى الدين المقريزى فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ويكنى جده لأبيه المقريزى نسبة
إلى مقريز من خبط بعلبك بسورية .

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الجزء الثانى إلى سنة ٧٤١ هـ . نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار المکتب المصریة ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢)
- کتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشبیل (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠) (طبعة الجمعية الزراعية - القاهرة ١٩٤٣ م) .
- ابن منجب الصيرفى (٥٤٢ هـ) : الإشارة إلى من قال الوزارة ، (١) .
- ابن میسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .
- تاریخ مصر ، طبعة هنرى ماسیه . (القاهرة ١٩١٩) .
- یاقوت : (٢٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدین أبو عبد الله الرومى .
- معجم البلدان ، ١٢ جزءا . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثاً — مصادر أوربية

- Allan : (J.)
The Cambridge Shorter History of India. (Camdridge, 1924).
- Arnold : (T. W.)
The Caliphate. (Oxford, 1924).
- Aitya (A. S.)
The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938.)
Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938.) .
Embassies and Diplomatic Correspondence between 1800 and 1830 A. D.

(١) لکتابه قيمة خاصة في بحث تاريخ الفاطميين ، لان ابن تقي الدين يورد في كتابه الرسائل في عهد الخليفة الأمر الفاطمى من سنة ٤٣٥ هـ حتى ٥٣٥ هـ ، كما كان متصلاً بالبلاط الملكى اتصالاً مباشراً .

Blochet (E)

Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). Extrait de la
Revue de l'Orient Latin. Tomes VIII—XI)

Browne, (E. G.)

Literary History of Persia from the Earliest times until Firdawsi.
(London, 1909).

Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-
1502 A.B) Vol. II. (Cambridge, 1920).

Literary History of Persia. Vol. III. the Tartar Dominion
1265—1502. (Cambridge, 1923).

Budge (A. W.)

A History of Ethiopia. Nubia and Abbysinia-2 Vols. Bulletin
of the School of Oriental Studies (B. SC. G.).

(Cam. Med. Hist.) Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen. (A).

L'Empire des Sâssanides. (Copenhague, 1907. Memoires de
l'Academie Royale des Sciences et des Lettres— Denmark).

Collin. (G. S.) et E. Levi-provencal.

Un Manuel Hispanique de Hisba (paris, 1931).

Demombynes. (G)

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. (paris, 1922.)

De Sacy : (S).

Bibliothèques Arabissant Francais (Le Caire) 1933.

(Mem. I. F A. Caire)

D' Hosson (Baroun).

**Histoire des Mongols dequiss Techinguiz Khan jusqu' a Timour
Bey ou Temerlan, vol. III.**

Dozy (R).

**Supplément aux Dictionnaire détaille des Noms de Vêtements
Chez les Arabes** (Paris, 1845).

(Enc. Isl.) Encyclopaedia of Islam.

Devonshire (R. L.)

Rambles in Cairo, 1931.

Hassan H. 1.

Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940)

Hautecoeur (L) et Wiet (G).

Les Mosquées du Caire. 2. vols. (Le Caire, 1923).

Heyd : (W.)

Histoire du Commerce au Moyen-Age. Vol. II.
(Leipzig, 1925).

Hitti : (P. R.)

The History of the Arabs. (London, 1940).

- (J. A) Journal Asiatique.
 Howorth (Sir Henry)
 History of the Mongols Part III. vol IV. (London, 1876-1888).
 Kendrick. (A. F.)
 Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period.
 (Victoria and Albert Museum)
 Lane—Poole, (S.)
 The Art of the Saracens (London, 1888).
 The Story of Cairo. (London, 1882)
 History of Egypt in the Middle Ages (London 1900)
 The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)
 Lavoix (H.)
 Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale,
 Egypt et Syrie.
 Le Strange (G.)
 Palestine under the Moslems.
 Marcel (M. J. J.)
 Histoire de L'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à
 L'Expédition Française. (Paris, 1848)
 Mayer (L. A)
 Saracenic Heraldry « Oxford, 1933 »
 Mercier
 La Chasse et les Sports chez Les Arabes. « Paris, 1927 »
 Michel « B »
 L'Organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks
 d'après Qalqachandi. Le Caire, 1925.
 « Extrait de bulletin de l'Institut d'Egypte, T.VII. Session
 1924—1925 ».
 Muir « W. E. »
 The Caliphate, its Rise, Decline and Fall « Oxford, 1902 ».
 Quatremère « E. »
 Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte 2. vols. Paris,
 1847—1844 »
 Toussoun : « Omar »
 La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe « Mémoires de
 la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII. 1. 2 parties—
 Le Caire 1926—1928 »
 Sanhoury. « A. A. »
 Le Califat « Paris, 1926 » .
 Van Berchem « Max »
 Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. « Le
 Caire, 1823 » Mem. I. F. A. Caire.

Wiet : G.

Histoire de la Nation Egyptienne, L'Egypte Arabs, Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933.

Les Biographies du Manhal Safi. Memoires Presentés à l'institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendence dans l'Egypte Medievale, ed. de la Revue du Caire, 1942.

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome. II, Mem. de l'institut fr. d'archeologie, 1900.

كتب المؤلف

- ١ — **النظم الرسومية (الطبعة الثالثة ١٩٦٢)**
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق.
يبحث في نظام الخلافة ، والوزراء ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة الولاة ،
ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء .
ترجمه مولاي عليم الله خان صاحب صديق إلى اللغة الأوردية ، لغة ،
بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .
- ٢ — **فساد لهن في التاريخ الرسومي (الطبعة الثانية ١٩٦٣)**
يبحث في تاريخ الفساد في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر
الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .
- ٣ — **سيرة القاهرة (الطبعة الثانية ١٩٥١)**
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ترجم من الإنجليزية إلى
العربية عن Lane - Poole : The Story of Cairo
- ٤ — **جوهر الصقلي (الطبعة الثانية ١٩٦٣)**
يبحث في حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي ، والدور الذي قام به
المعز في تاريخ مصر
- ٥ — **مصر في العصور الوسطى (الطبعة الخامسة ١٩٦٣)**
من الفتح العربي إلى الفتح العثماني
يبحث في تاريخ مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . ويشمل عمسند
الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر ، وهمود دول : الطولونيين ،

والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك ، وذلك فيما يتعلق بالتاريخ
السياسي ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ،
والحالة الاجتماعية .

٦ — دراسات في تاريخ الممالك البحرية (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في مييزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفي عهده ،
وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة . وألقاب
السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطاني داخل
القصر وفي المراكب ، ونظام الخلافة العباسية في القاهرة ، ودواوين الحكومة
الملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكي ، والقضاء والمظالم
والحسنة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ — استخراص المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ

المصري الوسيط (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث في طرق البحث التاريخي ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ،
ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة .

٨ — التاريخ الإسلامي العام (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة
الأموية ، والعصر العباسي ، ونظم الحكم في الجاهلية والدولة العربية والدولة
العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

شارع عدل بالقاهرة

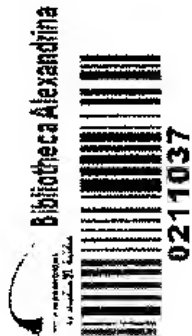
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

The History of Gawhar Al Sikilli

COMMANDER OF THE FATIMITE CALIP AL MO'IZ

By
Dr. Aly Ibrahim Hassan
Senior Inspector of Humanities,
Ministry of Education, Cairo.

PUBLISHED BY
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, ADLY STREET, CAIRO.



التمن ٣٥